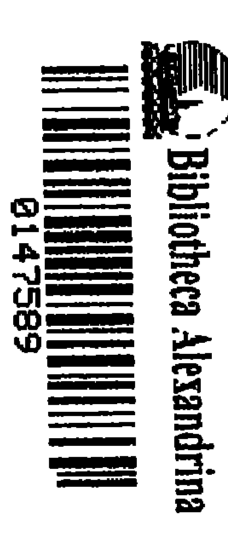
أحمد فؤاد تيمور

أمومة حائرة



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

أمومة حائرة

وقصص أخرى

أمومة حائرة

وقصص أخرى

تأليف

أحمد فؤاد تيمور

القاهرة — ١٩٧٠

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

تصدير

بقلم الأستاذ الكبير محمود تيمور

(الكلمة التي كتبها تعبيراً عن رأيه
في أول قصة في هذه المجموعة ، وهي قصة
« أمومة حائرة ») .

هذه قصة قصيرة اخترت أن أقدم لها ، وما أقصد بهذا التقديم مجاملة كاتبها ، لمكان قرابته مني ، بقدر ما قصدت إلى تقدير ما فيها من قرابة للفن ، وهي أعز وأبق ، وليس غيرها أولى بالمجاملة والإيثار .

لقد استرعى انتباهي من القصة أنها طليعة طيبة ، وما أحرانا أن نهتف لمثلها من الطلائع ، كي تأخذ الكفايات المبشرة حظها من النماء والازدهار .

وليست هذه القصة بالتي تنطوي على أحداث ضخام ، وشخصيات معقدة ، ونهايات مثيرة ، ولكن قيمتها تتركز في لمستها الإنسانية الصادقة ، وفي منحاها الطبيعي الهين المألوف الذي سارت فيه بدءا وختاما .

يصور لنا الكاتب طفلة نشأت ، وبين جنبيها مشاعر مبكرة للأمومة ، فكان متنفسها العاطفى هو الدمى والعرائس ، ومضت بها الأيام تنضج من مشاعرها تلك ، حتى استقبلت حياة الزوجية ، وهى معقد الأمل فى أن يتحقق لها حلمها المنشود ، وبينما هى توشك أن تقطف الثمرة الزكية ، وتنعم بالصحبة الأنيسة ، إذا صرح الأمل ينهار ، فلا تجد أمامها إلا سرابا كان يروى ظمأها فى عهد الطفولة الغضة ، وهيهات أن يطفىء لها اليوم ظمأ ، وقد جاوزت ذلك العهد الوديع .

لم يفت الكاتب أن يستهل قصته بتمهيد ، فأدار حوارا حول صورة تزين حائط حجرة ، وماهذه الصورة إلا رمز لمحور القصة ، أعنى الأمومة ، وفى الحوار تلمع هذه الجملة : « إن كل امرأة تحيا فى باطن نفسها ماتحياه على مطرح أنظارنا تلك الأم الفخور » . وهذا التمهيد يدل على بصر بالصناعة القصصية ، إذ يقيم ركناً من أركانها هو الإيحاء بالموضوع ، والتشويق إليه . وليس التمهيد ثانوياً فى علاقته بالقصة ، وليس نطاقه بحيث يطغى على كيانها الجوهرى .

مضى الكاتب يصف لنا كيف نشأت عاطفة الأمومة عندالطفلة وصفاً جميلا ، فهى : « ما كادت تستكمل سنيها الخمس حتى كان سمعها

الغض يأنس بذلك اللحن الطروب ، لحن الأمومة الخالد ، وعاشت في حداثتها تترسل عليها تلك الأنغام العذبة الرائقة كأنها سواكب الطل في الأسحار تلثم نابت الزهر ، أو كأنها مطالع الأضواء تداعب عصفورا في وكره لتنفض عنه خدر النعاس ، وتبعث فيه يقظة النهار الجديد » .

وأحسن الكاتب في اختيار الجو الذي يصلح مسرحا لتلك العاطفة الأمومية في عهد الطفولة ، جو الدمى والعرائس ، وبرع في نقل إحساسات الطفلة ، وهي تضفي على تلك الجوامد خفقة الحياة ، حتى لكأننا نعيش مع العرائس والدمى ، نحسبها من الأحياء . فالعروس كانت تقع في يد الطفلة : « دمية صامتة ، لا حس فيها ولا حراك ، فتسرع إليها تتحدث ، وتقبل عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحها ، ليستكمل خلقها ، فإذا الدمية الصموت ناطقة ، وإذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس » .

ولا يقف الكاتب في تصوير موقف الطفلة من العرائس والدمى عند مجرد الوصف ، ولكنه يحاول أن يجعلنا نؤمن بأن الطفلة قد اتخذت من عرائسها ودماها دنيا حقة لها كل مظاهر الواقع ، فهي تقص عليها ما تقص ، وهي تغضب منها تارة وترضى عنها تارة أخرى ، وهي تعالجها إذا أصابها الضر ، وهي تتعهدها ليل نهار .

ولا يدخر الكاتب جهدا فى تصوير ما يسميه بحق « خلجات الأمومة » فبينما الأم تتمثل طفلها عملاقا كبيرا له صولة وهيبة ، تتمثله فى الوقت نفسه رضيعا يفتقر إلى ثديها ليلتمس عنده رحيق الحياة !

وينتقل بنا الكاتب مع الأم الثكلى ، إلى عالم الدمى والعرائس ، عودا على بدء . إذ تعود الأم سيرتها الأولى ، لا سلوة لها بعد فجيعتها الفادحة إلا أن تلوذ بتلك الجوامد تخلع عليها صبغة الحياة التى ضن بها الزمن على وليدها المرموق .

وينتهى بنا الأمر إلى الأم تهدهد عروسا من قطن على مهد الطفل الفقيد ، وفجأة تهبط على حافة المهد، متشبثة بأعواده ، يستبد بها نشيج موصول . وإنه لختام موفق تتجلى فيه يقظة الواقع ومرارة الحقيقة ، على الرغم من خداع النفس بالخيال الموهوم !

والقصة فيها لوامع من حقائق الحياة، ومنازع النفس، فى أسلوب يؤثر الجمال والتأنق لفظا وعبارة ، وكأنما الكاتب يغنى قصيدة أو يعزف لحنا ...

محمود تيمور

أمومة حائرة

ضمنا بهو الدار ذات عشية ، تترسل من ثرياته أضواء محتشمة هادئة تفيض على الحجرة مزاجا من السكينة والأمن ، وكأننا بين نقوشه المحلاة بالتبر الخالص ولوحاته الفنية الأصيلة فى محراب الفن نتوسم الروعة والبهاء .

وأظهر ما فى ذلك البهو لوحة لفنان عبقرى تمثل الأمومة فى أوضح تعبير ، وقد انحنى إطارها المذهب على طفل يرتضع ثدى أمه الحنون ، وهى رانية إليه بنظرات زهو وإعجاب ، يرصع جبينها تألق كتلك البسمة المشرقة التى يطلقها الوجود يحيي بها تباشير الصباح .

وجلسنا نترشف أقداح القهوة ، ونعاود ما كنا نتداوله من أحاديث الفن وأهله .

فانبرى من بين المدعوين أحدهم يغمغم ، وهو مضطجع فى جلسته ، وعيناه عالقتان باللوحة :

لم أجتل أروع من ذلك الرسم . . . فيه يتآلف سمو الفن وواقع الحياة . . . أليست الأم هي ذلك النبع الفياض يتفجر منه رحيق الحياة ؟ . . أو ليس وليدها ذلك الجدول الرقراق يحمل معنى الفتوة ، وينشر في مداره ومجراه روح الخلود ... ؟

وعقبت سيدة البيت ، وهي تزجي ضحكة لينة عابثة :

مرحى لك ياسيدي الفيلسوف ! . . . ماذا يفيد ذلك النبع الفياض وهو يجود برحيقه على الجدول الرقراق ؟ . . أكذوبة العيش ، وخدعة الدنيا . . . ليس جدولك الرقراق إلا نذير الاضمحلال والضعف والفناء لذلك النبع المسلوب . . . أهذا معنى الخلود ياسيدي ؟ ...

فقال لها محدثها ، ومازال رانيا إلى جدار البهو ، ينفث دخان لفافته ، فتنعقد في سماء الحجرة غلائل من سحب لا تلبث أن تفنى :

لاشك عندي سيدتي أن كل امرأة تحيا في باطن نفسها ماتحياه على مطرح أنظارنا تلك الأم الفخور . . . ألم تفطني إلى ما يتوضح على محياها من رفاهة ونعيم ؟ . . إنها تتوسم في هذا الغصن الرطب عمرا جديدا لها تتمثل فيه نضرة الربيع وشباب الحياة .

انظري إلى عينها تتلألأ ، إلى وجهها يتطلق ، إلى بسمة على ثغرها تكشف عن ثقة ورضا واطمئنان . . . هـــذه هي رسالة

المرأة . . . رسالة البعث ، رسالة البقاء ...

فتجافت سيدة البيت عنه بنظراتها تهمهم :

إننا نفتقر إلى ثالث يحسم ما بيننا من خلاف !

وأقبلت عليّ تقول فى صوت متراخى النبرات :

يسعدنى سيدى الطبيب أن أقف على رأيك فى هذا المشكل ...

وكانت مفاجأة أذهلتنى شيئا . . . وانسابت نظراتى إلى اللوحة مليًا فى مكانها العلىّ عسى أن تلهمنى الرأى السديد .

وانطلقت أسرح الفكر لحظات فيما سمعت، فوثبت إلى ذاكرتى أشتات من الأحداث مرت بى فيما غبر من أيام ، وإذا أنا أتطلع إلى الجمع فأقول :

سأقص عليكم قصة تراخى بها العهـــد ، غير أنها ماثلة فى تفصيلاتها ودقائقها أراها وأحسها كأنما أشهدها فى يومى الحاضر.. لتغفروا لى أنى أكتم الأسماء . . . بذلك يقضى علينا أدب المهنة .

منذ سنين تقضت ، انعقدت بينى وبين أسرة من كرائم الأسر ألفة ، وتوثقت صحبة ، وكثيرا ما تتعدى الصلة بين الطبيب ومرضاه حد التعارف ، فتصبح صداقة وكيدة وودا مصفى .

بيت القصيد فى أسرتى صبية بكرتْ إليها مشاعر الأمومة وهى طفلة لم تستكمل سنيها الخمس بعد ، فابتسمت للحياة ، يأنس سمعها

الغض بذلك اللحن الطروب ، لحن الأمومة الخالد ، وعاشت فى حداثتها تترسل عليها تلك الأنغام العذبة الرائقة ، كأنها سواكب الطل فى الأسحار تلاثم نابت الزهر ، أوكأنها مطالع الأضواء تداعب عصفورا فى وكره لتنفض عنه خدر النعاس ، وتبعث فيه يقظة النهار الجديد .

وتوضحت خلجات الأمومة فى مواقف عدة من حياة الصبية ، طورا بعد طور ، وعهدا بعد عهد .

كان أهلوها يسارقون إليها النظر ، فيلفونها قد خلت إلى عرائسها فى ركن من أركان حجرتها الخاصة ، توليهن الرعاية والحدب ، كأنها أم رؤوم تتعهد أطفالها بما يوفر لهم الراحة والنعيم .

وما كاد ذوو القربى وغيرهم من الجيرة والصحب يتعالمون نبأ افتتان الطفلة بالدمى والعرائس ، حتى أفاضوا عليها شكولا وألوانا من هذه التماثيل ، فاجتمع للطفلة من عرائس القطن والجلد والمطاط وغيره حشد كبير .

وعلى الرغم من تكرار الهدايا فى نوعها الموحد وصنوفها المتشابهة ، كانت الصبية تتلقى الجديد منها بشبوب من الشغف ، كأنما يهدى إليها أول مرة .

كانت العروس تهدى إلى الطفلة دمية صامتة ساكنة لا حس

فيها ولا حراك، فإذا تقبلتها الطفلة أسرعت إليها تتحدث، وأقبلت عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحها ، ليستكمل خلقها ، وتبث فيها خفقة الحياة ، فإذا الدمية الصموت ناطقة ، وإذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس ، وإذا هي قد أخذت مكانها بين العرائس الصواحب يتناقلن الحديث ، ويسترسلن في ثرثرة ومعابثة .

وأفردت الطفلة لمملكة العرائس ركنا من حجرتها ، عمرته بما يلزم من أدوات الحياكة والتزين والتطييب ، وأطلقت على كل من العرائس اسما تناديها به ...

استأثر بالطفلة ركنها الحبيب ، تقضي فيه الساعات الطوال ، فتستطيب في صحبة عرائسها الحياة ، تستوي على مقعدها تسامر الدمى بما شاءت أن تسامرها به من قصص ونوادر وأفاكيه ، وهي تستدرّ خيالها الساذج في التأليف والتصنيف ، فلا تلبث أن ترسم صورة منمقة « للشاطر محمد » مصروفا إلى مغامراته الحربية ، يدير المعارك ، ويدك الحصون ، ويفتح القلاع، فتعنو له الجباه ، وتخر له الجبابرة ، ولا تزال به في ساحة الوغى ، يكتب له نصر بعد نصر ، حتى يئوب إلى عرشه ، عليه أكاليل الغار ، محفوفا بالمهابة والفخار ..

وإن شعرت الطفلة بأن عمّار الركن الحبيب تشغب عليها

أطلقت فى خضم الشغب والضوضاء بقصة أمنا الغولة ، فما إن تنفجر القصة بما فيها من تخويف وترهيب ، حتى يعاود الركن أمن وسلام ...

وكثيراً ما نفضت الطفلة لصويحباتها العرائس ذات نفسها ، تكرر عليهن ماتلقطته من أحاديث أمها وخالتها ومربيتها ،وماتقع عيناها عليه من أحداث يومها الطويل ، وكثيراً ماأقبلت على ركنها تسهر على راحة عرائسها ، فتمضى الوقت حيالهن ، تكوى ثوب هذه ، وترجل شعر تلك ، وتتعهد سائرهن بألوان من التدبير ...

وتراءت لى الصبية ذات يوم مندفعة الخطو ، تقصد مجلس أمها وتبسط لها دمية مهشمة الأوصال تستبين بها جراح ، وإذا هى تقول وفى صوتها نبرات حزن ، وفى عيونها بريق الدموع :

لا بد من استدعاء الطبيب ...

فابتسمت أمها لها تطيب خاطرها ، وهى تشير إلىّ وفى نظراتها دعابة :

ألم ترى الطبيب . . ؟ لقد استدعيته لعروسك المسكينة ... اعرضيها عليه ...

فتطلعت إلى الطفلة أقول فى اهتمام مصنوع :

أرينى دميتك . . ما لها ؟ ...

فتقدمت منى فى تهيب تعرض علىّ الدمية وهى تهمهم :

لقد سقطت عن المنضدة ، فانكسر ذراعها . . .

واسترسلت تغمغم كلمات يقطعها النشيج ، ثم تمالكت تقول فى صوت حنون :

لا تقس عليها ... كن بها رحيما ... إنها عروس طيبة . . .

وتناولت منها الدمية ، وعالجت وصل ذراعها الكسيرة ، حتى أفلحت ، والطفلة محدقة إلىّ ، ملء عينيها قلق واهتياج .

فلما تبينت عروسها قد ردت إليها العافية جذبتها منى تحتضنها ، وقد تألق وجهها ذلك التألق الذى تعودت أن ألمحه يرتسم على أسارير الأمهات حين يستبشرن بسلامة أطفالهن من الأمراض والأخطار ...

وسرعان ما رأيت الطفلة تهرب بدميتهـــا وثابة الخطو ، فاستوقفتها أمها تقول :

ألا تشكرين السيد الطبيب؟... إنه جبر ذراع صبيتك ... إنه ردها إليك سليمة ... حرى بك أن تقبليه قبلة الشكر وعرفان الجميل .

فرجعت إلىّ ، ومست جانب وجهى بقبلة خاطفة ، وهى تهمهم فى خجل واستحياء :

شكراً ... ألف شكر ...

فحملتها بين يدىّ أقبلها فى بشاشة وترحيب ، وأنا أوصيها بأن تحوط الدمية الجريح بما يجب من عناية ، مجتهداً فى إكساب ملامحى هيئة الجد ، كما أفعل حين أوصى أهل المريض بالمريض سواء بسواء.

فاستدارت عجلى تصدف عن البهو ، وهى تخاطب دميتها فى لهجة تتجلى فيها الإمرة والسيطرة المشفوعة بالتخوف والإشفاق :

أرأيت ما نالك من الشغب؟.. لعلك ترتدعين ... إياك والعبث مرة أخرى ... سلمت ، وبعد الشر عنك ... ستنامين معى . .

والتفتت الأم إلىّ تقول فى صوت كأنه المناجاة :

إنى من طفلتى فى حيرة . . . أخشى ما أخشاه إسرافها فى هذه العاطفة ... إنها أم يا عزيزى فى جميع خلجاتها وأحاسيسها . . . تصور أنها تحتضن فى كل ليلة عروساً من عرائسها، فتوزع عليهن لياليها ، لكل منهن نوبة ، كأنما توزع عليهن برها وحنانها بالسوية.. أمّ بين أولادها !...

ـــ لا تخشى مغبة تلك العاطفة ... السن كفيلة بالتخفيف من حدتها .

فقالت :

أهى تخف على علو السن أم تحتد ؟

فأجبتها :

أعنى أنهـــا تنضج مع الأيام ... فلا يكون لها ذلك المظهر الطفولى الذى ترين .

فعقبت تقول :

ألا تخشى نضج هذه العاطفة قبل الأوان ، فيكون لذلك أثر فى مستقبل الصغيرة غير مأمون ؟

والحق أنى كتمت عن الأم قلقى مما أستشفه وراء الأفق البعيد فى غيب السنين .

أقبلت أسائل نفسى : ماذا يكون موقف تلك الأم المبكرة فى ملتطم الحياة ومجاهل الأيام ؟ .

وواصل الزمن سيره الدءوب يزيد الفتاة من بهاء ونماء ، لقد صاغتها يد التطور حلية مكتملة الوضوح . . . فتاة مجتمع راقية تشع منها الأنوثة بضة الاهاب .

كانت تلك الزهرة فيما يتجلى من تصرفاتها تفصح عن عاطفة جياشة ، كأنها قبسة قدسية تتوقد لا يخبو لها أوار .

آن لهذا النبع الفياض أن تتفجر منه الحياة ، وأن يتراءى منه جدول رقراق كله صفاء ونقاء .

وربما جاذبنا الفتاة أطراف الحديث فى شأن الزواج ، فتنبعث للمناقشة فى يقظة وفطنة وحسن تقدير ، إن سئلت : ماذا تنشد فى

حياتها الزوجية ؟ أجابتك فى نشوة وإخلاص : طفلا أرعاه . . .
طفلا أحسن تنشئته . . . طفلا أفرغ له بكل ما أملك من
إسعاد وتنعيم .

تزوجت الفتاة .

وأقبل عليها زوجها يساقيها كأس الهناءة ، ويطارحها متعة
الحب ، فانبعثت تشيد صرح الأمانى ، وتنمق عش الأحلام .

وتوالت بها الأعوام دون أن ترف فى أحشائها خلجة حياة
للجنين المنشود ، فجن جنونها ، وتناوحت فى رأسها الفكر ،
وحجبت عينيها غشاوة نحت عن أنظارها ما تمثلته من حياتها
الزوجية : روضة فيحاء مورقة ملء أدواحها لحن الطيور المغردة .

أتلبث عقيما لا تنجب ، كتلك الشجرة العجفاء ، لا ظل لها
ولا ثمر . . . ؟

أتستحيل دنياها صحراء مواتا تعيث فيها الوحشة والخراب ،
وتتعاورها سموم الرياح ، وتصبح هى فى جحيم تلك الصحراء حصاة
يشقيها اليبس والجفاف ؟ .

لا صبر لها على عيش يطبق عليه الصمت والظلام ...

ولم تدخر جهدا ولا وسعا فى التنقل بين أيدى الأطباء ، غير
مقتصدة فى مال يبذل ، ولا مقصرة فى استجابة لنصيحة ترعى ..

لقد ضاقت هى بفضاء الأرض ، وبعلم الأرض ، وبطب الأرض . . . فلا مندوحة لها إلا أن تبسط كفها تستندى السماء .

ويوما برقت للزوجة ظنون آملة مستبشرة ، ولم تلبث هذه الظنون أن تحقق صدقها ، وبان على يقين أن الزوجة تنطوى على حمل .

وكان حملها شغلها الشاغل فى يومها الأطول ، وحلمها الحافل فى نومها البهيج ، تحرص أشدالحرص على جنينهاحين تخطو وحين تميل ، خشية عليه ، وحياطة له ، وإيثارا لعافيته المبتغاة .

وإذا خلت إلى نفسها تستمرىء متعة حملها ، تطلعت فيا بين جنبيها ، وقد علا تنفخه ، فتنعم النظر كأنما هى تود أن تستجلى جنينها المحبوب .

لا يقع فى بالها أن يكون ذكرا أو أنثى .

فليكن ما يكون . . . حسبها من متاع الدنيا وفتنة الوجود أن يمرح بين يديها وليد .

وبدأت تحس بالحياة تدب فى أحشائها النامية . فكلما تقلب الجنين يرف ، لم تتمالك أن تتحـــير فى عينيها دموع اليمن والتفاؤل والسرور .

واختلفت الفتاة إلى متاجر الثياب والزينة ، تتخير لطفلها

المنتظر ألوانا من الأكسية والطرف فى تأنق وسخاء . إن طفلها جدير بأن يحوطه الجمال فى كل شيء . . . فى اسمه ، فى زيه ، فى زينته ! ...

لتوفرن له الهناءة والرفاهة والإسعاد . . .

وتبعد الزوجة أشواطا على أجنحة الخيال ، فتتمثل نفسها وقد حملت فى حضنها لفيفة معطرة تختلج ، وهى تسبغ عليها دفء الحنان من صدر يموج فيه الحب الفياض . . .

وتنعطف عليه تتوسم جبينه المتألق ، وقد رنحها زهو ونشوة واستمتاع .

وتسترسل فى خيالها تصغى إلى صراخ الطفل الحبيب . . . صراخ النشطة والحركة والتفتح للحياة .

لسوف تأنس بأنات الوليد ، وما يبعثه من بكاء وصياح ...

لسوف يقع ذلك من سمعها موقع الروعة ، فما بكاء الطفل إلا لحن الوجود وأنشودة الخلود .

فليتصايح طفلها ما طاب له الصياح !

وتتغالى الزوجة فى خيالها ، فيتراءى طفلها لا تكاد تلده حتى يصبح عملاقا فى مهده ، قادرا أن يدبر ملكا ، ويسوس دولة ...

لقد أضحى مهيب الجانب ، تزين رجولته قسامة ووسامة .

نساء الأرض تدب فى ضراعة وتذلل ، لكى تستجدى منه نظرة الرضا والإيثار ، ولكن العملاق لا يلبث أن يعود طفلا يصعق بصرخاته مهتز الشفتين يطلب الغذاء ، فتلقمه الأم ثديها ، وتحنو عليه بذراعها ، فيرتضع فى طمأنينة وسكينة واستمراء .

بذلك تنتهى رحلة الزوجة فى عالم الأطياف ترطب بها قلبها الولهان ، ثم تنجاب عنها الأوهام ، وهى ما برحت فى مجلسها مدلية بأنظارها فيما بين جنبيها تتوسم وتستشف ...

إنها قلقة تترقب ... أذنها عطشى إلى السماع . . عينها عطشى إلى التطلع . . . ذراعها عطشى إلى الالتفاف . . . ثديها عطشى إلى الارتشاف ... جوارحها جميعا تهفو إلى تلك اللفيفة الخافقة الصاخبة تشعرها ببهجة الحياة ويقظة الوجود ...

طفلها الحبيب . . . لن تكون له مرضع سواها . . . لن يخلو به غيرها . . . ستفرد له وقتها أجمع ، وحنانها أجمع . . . لتهبن له حياتها جمعاء ...

وأقبل اليوم الموعود ...

فلما جاءها المخاض دعتنى أن أشرف عليها فى مستشفى التوليد ، وشد ما أوصتنى بطفلها لا أسوءه ولا أمسه بأذى .

وتوالت الساعات صعابا تعانى فيها الزوجة تباريح الألم ،

والجنين عنيد لا يتحلحل ، والطب يبذل وسائله السلبية دون جدوى.

وحانت اللحظة الحاسمة ، فلم يكن بد من إجلاء الجنين على أى نحو يكون ، استخلاصا للأم من براثن الخطر .

وانحصرت مهمتى من بعد فى أن أنهى إلى الأم نبأ فقدانها الطفل المنتظر .

كنت بجانبها عندما أفاقت تتحسس بعينها اللفيفة ، مرهفة أذنها إلى تلك الأنات التى طالما ترنمت بها فى عالم الرؤى والأوهام ، فلما لم تجد ما يناجى روحها العطشى رمقتنى بنظرة تريب تسألنى :

أين الطفل ؟ ...

وخيل إلىّ أنى قادر على مكاشفتها بالسر الأليم ، فاضطرب لسانى لا يفصح ولا يبين ، وجعلت أخاط فى الجواب ، فتطلعت إلىّ والحيرة بادية عليها تستكنه ما بطن من أمرى ، وإذا بى على حالى من السهوم والجمود ، فصرخت لى :

أين طفلى ؟ ... أفقدته ؟ ... أمات ؟ ...

وما تمالكت أن أطرق ، والدنيا تضيق حيالى ، وألفيتنى أشير إلى الممرضة إشارة تفهمها ، فأسرعت إلى المخدر تحقن به الأم الثكلى .

ولما بلغت من حديثى ذلك المبلغ ، ضربت ركبتى بيدى فى

سكتة قصيرة ، فسمعت سيدة البيت تهمهم فى صوت حسير :

مسكينة . . لا بد أنها جنت ..من كان فى مثل حالها لا يثبت له جنان .

فشخصت إليها أعاود قصتى ، وقد أخرجت لفافة تبغ من علبتى أنفث دخانها جزافا ، وأتناول قدح القهوة أرشف منه :

أمضت الثكلى أيامها لا تريم عشها، يتنازعها وحشة وانقباض ووجوم ، وفى صدرها يشب ضرام الحزن والتلهف على ذلك العصفور الذى ارتحل ، ولن يعود لكى يمزق الصمت بتغريده الأنيس ....

وأرادنى الصيف على أن أرتحل ...

واستأنفت عملى بعد الغيبة ، فإذا حاضنة الزوجة تزورنى لتشكو إلىّ بعض ما تجد ، فبادرتها أسائلها عن ربة البيت : كيف حالها ؟.. فاسترسلت تقول :

لا شغل لها فى الصباح إلا أن تتخذ مقعداً حيال النافذة تسرح منه النظر ، كأنها على موعد من زائر كريم ، ترتقب شبحه فى الأفق البعيد ، وعن كثب منها سلة حافلة بقطع من النسيج وكرات من الخيوط لا تفتأ أناملها تصنع منها الأكسية الصغيرة واللفائف الدقيقة ...

وفى سجوة الليل تخفق قدماها فى حجرة النوم متحيرة، وتتوخى صوان الثياب مشبوبة الوجدان ، فتستخرج منه عروسا من قطن توسدها حضنها وتهدهدها ساعة، ولاتلبث أن تكسوها بما نسجته لها من أثواب، حتى إذا استكملت لها زينتها حملتها إلىمهد الطفل ، فأرقدتها فيه ، واتخذت مجلسها بجانبه تهزه فى رفق ، وتترنم بأغنية هادئة الأنغام ... ويتخافت الصوت رويداً رويداً ، حتى يخيم على الحجرة صمت مرهوب، فإذا بها على حين فجأة تهبط على حافةالمهد متشبثة بأعواده ، وقد انتابتها رعدة ، واستبد بها نشيج جياش...

أطياف

أفناء الحب معقول . . . ؟

أصيغ من طينة البشر لتناله يد العفاء . . . ؟

أفى مكنة هذا الأثير الشفاف ، أثير الحب ، أن ينفذ إلى جوهر النفس ، ليس للماديات عليه طول ولا سلطان . . . ؟

أسئلة فاه بها صديق ، حينما كنا جالسين فى ذلك المنتدى الذى اصطفيناه على طرف من أطراف القاهرة ، نستمرىء فيه أويقات مؤانسة وإمتاع . .

وما هى إلا أن شعرت كأن زورق الأحلام ينساب بى على عباب الأفق البعيد ، حتى يسلمنى فى تطوافه إلى مرفأ الذكريات .

ويرسو بى الزورق فى أمن وسلام .

وأهبط درج السنين ، أستبين ساحل الأحداث .

وانصرفت أوقظ بدبيبى رواقد الأطياف ، فصلصلت تخرج من محابسها ، فاستدنيتها أتصفح بها ماضى العمر وسالف الأيام .

هأنذا فى قلب « باريس » الخفاق ، أتطلع إلى مجاليها فى تيمن وابتهاج .

أعجوبة الدنيا « باريس » . . . ليست بطولتهـــا وقفا على الملهاة والمسلاة ... فى مقدورها أن توافيك أيضا ببطولة المأساة .

رائعة هى فى صوغ الابتسام على الشفاه ، ورائعة هى كذلك حين تثير فى المآقى سواكب الدموع . . . إن الأقدار لتختارها منصة رحيبة تعرض عليها مسرحياتها الخالدة ...

أدعوك أيها الرفيق أن تشاركنى النظر والتفرج فيما أنا عارضه عليك ...

انتق بين النظارة مكانا يروقك ، وألق بالك لتستوعب ما يمر بك من مشاهد ومرئيات .

هاك النور يتضاءل ويتكمش .

وهاك الستار ينحسر عن المنصة المرموقة ، تفصح لك عما بها من شئون وشجون :

مَرْسم رحيب يتشعث فى أرجائه الأثاث .

نور متخشع يصاول الظلام فى مشقة وجهد .

موقد بادى القدم ، يشع منه دفء واهن يبغى أن يرد غائلة الشتاء فى عجز وقنوط .

لوحات مصورة يغص بها المرسم ، بعض منها حافل الزخرف والبرقشة ، وبعض آخر ما زال فى طور الصقل والتزيين .

وفى زحمة ذلك المرسم تطالعنا فتاة فى ميعة الصبا وبردة الشباب ، تتراءى لك ممددة على سرير المرض ، وجهها محتقن ، وجبينها متلهب ، وصدرها دائب التفرز ، أما جسدها المديد فقد تاهت معالمه فى طيات دثار فضفاض .

وتأخذ عينك فيمن تأخذ رجلا أسن ، لا يعييك أن تعرف أنه الطبيب المداوى يتبين أمر المريضة بكل ما وسعه من حيلة ووسيلة ، وقد تلحظه منهمكا يتكشف .

فما يلبث أن يشير عليها أن تقيم صدرها لكى يتعرف ، وهو يقول :

بقى علينا أن نتفحص الظهر . . . لا أقلقك بعد ذلك .

فتحاملت الفتاة على نفسها تجلس ، وكشفت عن ظهرها ، فانكب الطبيب يتسمع ، وهو يقول لها فى لهجة الآمر :

تنفسى . . . تنفسى . . اسعلى . . مرة أخرى . . . الأخيرة .

فتنخرط الفتاة فى زفير وشهيق ، وقد عاجلها الإعياء ، وإذا هى ينتابها سعال ، وتنتظمها رعشة تصطك منها الأعضاء ، فيهتف بها الطبيب يستمهلها لحظات :

مرة أخرى . . . الأخيرة .

فلا تتمالك أن تهوى على فراشها خائرة العزم، محتبسة الأنفاس، ويمضى الطبيب غير مبال يستكمل الفحص والاكتناه .

ليست المنصة مقصورة على الطبيب وفتاته ، فهناك ثالث يسترعى نظرك ، وهو ذلك الفتى السامق العود ، المتين البناء ، المقطب ما بين حاجبيه ، يقف عن كثب من السرير مضطربا فى وقفته ، يتعجل ما ينتهى إليه رأى الطبيب .

إن القدر قد اختاره فى مسرحيته ليكون للفتاة خلا وفيا ، بل عاشقا ولهان .

ورفع الطبيب رأسه ، ونزع السماعة عن أذنيه ، ثم تناول من حقيبته الصغرى قلمه ودفتره ، وحنى هامته يدون أوامره ، وأقبل عليه الفتى يسائله والحيرة تبدو عليه :

ما بها يا سيدى ؟

فيرده الطبيب بإشارة يقول :

سأطلعك على كل شىء . انتظر . . . إنى أكتب لك تذكرة الدواء .

وانصرف إلى ورقته يعاود الكتابة ، على حين انتحى الفتى ناحية فتاته يدثرها ، ويدمث لها مخدعها .

وتنحنح الطبيب يهمهم ، وهو يزايل مجلسه ، ويأخذ بيد الفتى إلى مكان قصيٍّ .

لا بد من إحضار الدواء على الفور . . . إن الرئة مصابة ببرد حاد . . . إن لم تعالج فتاتك فلست مسئولا عن العقبى .

وناوله التذكرة ، وما زال يثرثر :

حاذر التهاون . . . لا بد من أخذ الدواء . . . فى مواعيده . . . كما رسمته لك .

ورجع إلى المريضة يهمس لهـا فى لهجة وادعة وعلى فمه ترف ابتسامة مهزولة :

الأمر هين . . . بضعة أيام من الراحة كافية لتزيل عنك المرض ، وتعيد إليك الصحة كاملة . . . سأعودك غدا . . . إنى وطيد الأمل فى أن أراك أحسن حالا . . . سعد مساؤك .

وربت يدها ، ثم استدار يلملم أشياءه ويودعها الحقيـبة ، ثم دلف يخب فى معطفه السابغ نحو الباب ، وهو يقول للفتى فى لهجة حازمة وصوت غير جهير :

لا بد أن تعنى بها . . . طب مساء سيدى !

فرد الفتى التحية ، وهو ما زال عاقداً ما بين حاجبيه ، وما إن غيب الباب الطبيب حتى صدف الفتى قافلا إلى فتاته يجاهد فى دفع

اضطرابه ، ويكسب وجهه المغضن أمارات بشر مصنوع . . .

ومثل خيال مخدع المريضة يحدق فى وجهها المحتقن بعين قلقة حيرى ، ثم جلس على حافة السرير ، وطفق يمسح على رأسها فى ترفق وإشفاق ، فتحاملت الفتاة تلق عليه نظرات تتجلى فيها الدماثة والرثى ، وأمسكت بيده تضغطها وهى تقول مجهدة الصوت راعشة النبرات :

أشكر لك ما صنعت وما تصنع .. الحق أنى أصبحت عبئاً عليك... أما سئمت؟... الأحرى بك أن تنقلنى إلى المستشفى ... إلى دار للطب والعلاج .

فهمهم الفتى فى لهجة استعطاف :

الأحرى بك أن تنامى .. لاتفكرى فى شىء غير صحتك... إنى ذاهب فى طلب الدواء . . بضع دقائق .. إنى أعبدك ... اسلمى .

وانحنى على جبينها يطبع عليه قبلة حارة .

فانبعثت الفتاة تتابع الحديث، وسرعان ماعاودها السعال يخنق منها الأنفاس ، فتهدجت نبراتها ، وتعثرت الكلمات على شفتيها ، وطفقت تسعل سعالا أجش مرهوباً ، فدمدم الفتى :

أنت إلى الراحة أحوج ، فلا تسرفى على نفسك بالكلام ... كفى ... نامى... حرستك السماء .

فأسبلت جفنيها تتعجل المنام...

وزايل الفتى مكانه من السرير ، يسارق الخطا فى مسا ترة واحتراس ، يمضى إلى أقصى الحجرة ، متمايلا فى مشيته ، يجر نفسه جراً ، حزين الصدر ، ثائر النفس ، شارد الخطرات . .

وطالعه صوان الأنبذة العجوز فى ركنه العتيد ، تتطاول منه إلى الفتى نظرات تودد وملاطفة ، تهيب به أن يستعين بما ضمته حناياه من بقايا الرحيق على تفريج ما به من كربة وضجر .

وامتدت يد الفتى إليه ، وطفقت تعبث بالزجاجات ، فتصيدت قنينة النبيذ ، فتناولها ينزع منها الكأس ، وراح يعبها عبا . وبينما هو يهم أن يملأ الكأس ثانية إذ به يسمع سعلة خشنة تتحشرج فى حلق « سوزان » ، وتعالى أنينها تشكو وتتوجع ، ثم استبد بها نشيج احتبست منه أنفاسها ، فرمى الفتى بالكأس بالغ الحنق ، وما لبث أن ركل كسارها ركلة عنيفة ، فتبعثرت شظاياه يمنة ويسرة ، وخف هو من فوره إلى النافذة نافر الجفنين ...

الدواء ... لابد من الدواء ... ما أحوجها إلى عناية ... الخطر من التهاون ... ولكن كيف السبيل إلى ثمن الدواء ؟...

ليس فى يد الفتى شىء من المال ... أف للفاقة والإفلاس ... ماذا يصنع ؟ .. أيتها السماء اهديه الطريق ... طريق الخلاص .

سيهبط دونك الستار أيها الرفيق هنيهة يحجب عنك ذلك المشهد البائس ، من مريضة تئن ، وحبيب محزون مفلس ، خاوى الوفاض .

هذه مهلة دقائق تسرى عنك ، وتزيل من مخيلتك ذلك المشهد الشاجى ، وقد ألقيت إليك صحيفة البرنامج تكشف من حياة القصة ما لا تكشفه منصة المسرح ، فاقرأ من صحيفتك ما تستروح به ، وما تستجلى منه نعماء الحياة ... هذه صفحة تريك كيف كان مطلع التواصل بين الحبيبين ...

لا جديد فى الحب . . .

نشأت العلاقة بينهما على سنة الغرام بين العشاق ...

لقاء على غير عمد ...

كلمات قلائل تفضى إلى تعارف روحين ...

روابط من الود تستوثق ...

هيام جامح ليس منه محيص ...

فى شارع من شوارع «باريس» جياش الحركة ، يضيق بالسابلة ، كانت الفتاة تخطو خطاها تخترق الطريق ...

وإذا سيارة متهورة توشك أن تنقض عليها ، ولولا شجاعة فتى جسور يخف إليها فيستنقذها من الصدمة القاضية بين تهلل من جمع

السابلة وإكبار ، فترتمى على صدره الفتاة مذعورة ، وقد رجف قلبها وتملكها اضطراب ، ويدعوها الفتى إلى مشرب تستريح فيه بعض الوقت فلا تتمنع ، ويدور بينهما حديث أنيس ، فينعقد بينهما تعارف ووداد ، وتنكشف للفتاة شخصية المنقذ الجرىء ...

فتعلم أنه «جاك دوفال»... شاب قضى عهد صباه فى الجنوب ، تواقا إلى الفن ، فما إن اشتد ساعده حتى احترف التصوير والنحت ، وذلك هو الآن يعيش فى العاصمة الزهراء بفنه ولفنه .

ويعلم الفتى من أمر فتاته أنها راقصة من أهل «باريس» تعرض رقصاتها فى سوامر الليل . . .

وقيضت لهما الأقدار أن يترشفا معا من ذلك النبع الخالد ، فما استشعرا نداوة القدح تلامس شفاههما ، وشذا الشراب يعطر أنفاسهما ، حتى استحوذ عليهما شعور غامض ملك عليهما أمرهما كله ، وأيقنا بأن كلا منهما قد وجد تكملته المفقودة التى تعيد إليه جمال العيش وسعادة الحياة .

فاستقر عزمهما على أن يظلهما سقف واحد ، وأن تحتويهما معيشة مشتركة ، فما لبثت أن انتقلت إلى مرسمه تقاسمه المعاش...

وتألقت لهما الأيام ... هو ناشط فى مرسمه ، بارع فى فنه ، يبدع ويروع ، وتلوح له تباشير الرواج ، وهى إلى عملها فى

سوامر الليل ترنح أعطافها طمأنينة واستقرار .

ويوما أسند إليها مدير الفرقة رقصة من لون جديد ، فتبدت للنظارة فى ثوبها الألاق تدور فى مدار الرقص ، لاوية خصرها ، ثانية ذراعيها ، تستهوى الأنظار فى حمية وحماس .

لقد أبدعت ...

كانت تشعر بكل خلجة تؤديها ، وهى فى حلبة المرقص تنتشى بالأنغام ، فلقيت من جمهرة المتفرجين كل إعجاب ، حتى لقد اضطرت إلى أن تعيد الرقصة مرات ومرات .

وكان « جاك » ينتظر فراغها فى أعقاب الليل ، فانطلقت معه إلى الطريق مشبوبة النفس ، تعبر له فى حديث جياش عما يختلج فى صدرها من مباهج النصر ونشوة المجد ، وما زال رأسها يترجع فيه دوى التصفيق والهتاف .

ولبث « جاك » و« سوزان » فى تجوالهما ساعة ، والجو لاسع البرد ، وما كانت لتطيق فى حمية الحديث والتعبير أن تتق لسعة الهواء بمزيد من الكساء .

وبلغ الحبيبان دارهما فى مبرق الصبح ، فنامت « سوزان » تغتالها الحمى .

لقد أرتك منصة المسرح موقف الفتى والطبيب من الحبيبة

المريضة ، وانسدل الستار والفتى ماثل حيال النافذة يدلى بأنظاره إلى عرض الشارع ، يتوسم أطياف الذكريات ، حينما كان هو و « سوزان » ينعمان بساعات أمن وسلام . . .

كم من مرة ذرعا معا ذلك الطريق جنبا إلى جنب ، تستوقفه صاحبته أمام وجهات المتاجر ، تستعرض ثوبا أو فروا أو معطفا أو حقيبة مما يلزم للتأنق والأبهة . .

إن « سوزان » فتاة مفتونة بالجمال ، تختلب لبها الطرائف والألطاف . . .

إن صدره يمور ، ورأسه تعج فيه الفكر ، كلما توسم صاحبته طريحة الفراش تتوجع ، وقد تعاصى عليه ثمن الدواء . . .

لو أنه أكمل تلك اللوحات المبعثرة فى مرسمه ، لاستطاع أن يجد من ضيقته فرجا . . .

وارتد الفتى عن النافذة ، وقد ضجر بما يتبدى فى الطريق من فورة ونشطة ومراح . . .

لابد من إحضار الدواء . . . لابد . . .

ليبيعن شيئا . . .

وطمح بعينيه يمنة ويسرة يستوعب ما يحيط به من رسوم ونقوش وأثاث ، واستقر نظره فى تطوافه عند لوحة تجلو

« سوزان » فى رقصة من رقصاتها الفواتن ، تلتمع عيناها ، ويشرق محياها . . .

إنها كاملة الصقل والطلاء . . .

يالها من مغنم . . .

والتمعت فى رأسه بروق الأمل ، وهتف به من أعماق قلبه هاتف يهمس له :

هذا سبيل الخلاص ، عليك به ، لا تتردد . . .

أيملك أن يتصرف فى هذه اللوحة العزيزة ؟ . . .

لقد أهداها إلى « سوزان » ، فأصبحت خالصة لها ، خاصة بها . . . وهى التى تملك منها زمام البيع والكسب .

واصطرعت الفكرة والعاطفة ، وبقى لحظة بينهما مقسّما ، غير أن الحاجة استحثته فى طريقه ، فأنزل الصورة من مكانها المرموق على الجدار ، وسارع باللوحة يطلب الطريق ، لا يلوى على شىء . . .

وتتابع القراءة فى صحيفة البرنامج أيها الرفيق ، فتعرف أن فتانا ظل مهرولا تسوقه قدماه فى مسلك ضيق يقبع فيه حانوت اعتاد أن يبيعه ألواحه . . .

وتوقف صاحبنا يقرأ فى دهشة لافتة صغيرة الحجم علقت

على باب الحانوت ، وكتب عليها تلك العبارة المقتضبة : المحل مغلق لسبب طارىء . .

كانت تلك اللافتة بمثابة الغدّارة فى يد القدر صوبها إلى قلب الفتى يصيب بها منه مقتلا.فارتد على عقبيه تمزق نياط قلبه حسرة، وانبعث يمرق فى الطرقات والدروب مبعثرة خطاه ، كأنه القذيفة المدمرة أطلقت تتحين ساعة التفجر لتفنى فى فرقعة مدوية وتمزيق مرهوب . . .

وهنا تحلحل القدر يتمطى ليرعى الفتى من عليائه بنظرة إشفاق، وأ وما إليه يهديه السبيل ، كأنه شرطى المرور يشير بعصاه ليرشد السالكين إلى طريق النجاة وبر السلام .

ألفى الفتى نفسه أمام مشرب تملكه « مدام مارتين » « وهو من مشارب « باريس » العتاق ، يتكمش على استحياء مما يتألب عليه من أبنية جدد شواهق . . .

لعل « مدام مارتين » تعينه على أمره العسر . . .

وهم الفتى أن يدخل ، وإذا لمة من السكارى يصدمونه صادفين عن المشرب فى خطا مترنحة ، وقد بعثوا من حناجرهم أناشيد مهوشة النغم صاخبة الإيقاع .

وانثنى عليه أحدهم يحملق فيه متعوجا فى وقفته ، وما عتم أن

رماه بقوله :

فنان مفلس لاريب .

فتصايح الباقون يقولون :

وقانا الله الفن . . . فني البعد عنه مغنم وإسعاد .

وزايلوا باب المشرب في صخب وضجيج يبتعدون .

وشيعهم الفتى بنظرة نكراء ، وكأنه بهم يصيح : أفي الحياة إسعاد أيها الأغبياء ؟ . .

واعتدل يولى وجهه دخيلة المشرب ، مهتاج النفس ، وركل الباب ، فتثاءب مصراعاه . . .

كفى ما قرأت في النشرة من سطور . . .

أجراس المسرح تطن تدعوك إلى عود . . .

هاك المنصة في أضوائها الخواشع . . .

المشرب يغص بأهل الحظ تتعقد في أرجائه سحائب الدخان ، كأنما سكرت تلك السحائب بتلك الأنفاس المخمورة ، فازدادت من تراقص وترنح واختيال . . .

سقاة المشرب في جيئة وذهوب ، توافي المناضد بالأقداح والأطباق . . .

روادالحانةمنغمسون في الشراب ولعب الورق في مراح وضجيج .

الفتى حائر الخطو ، زائغ البصر . . .

« مدام مارتين » ربة المشرب تلحظ الفتى فتقوم إليه فى جرمها البدين ، ترف على شفتيها ابتسامة ، وهى تصيح متهللة :

أهلا بالصديق ..

فرد الفتى عليها التحية ، غير أن المرأة فطنت إلى لواعج تلك النفس المحطمة ، وما كان يعز عليها أن تفطن إلى ذلك من ضيفها الطارىء ، وهى الخبيرة بأطوار الناس ، وما تنطوى عليه جنوبهم من أشجان وهموم ، وتطلعت إليه تقول :

أرى عليك سيماء القلق والتحير . . . ألم أخبرك من قبل أنى تواقة إلى الفن . . . أحب أهله . . . أحبهم أن يشاركونى حياتى هذه . . . لماذا تأخرت عنى ؟ . . . تعال معى . . . قص على ما يملك عليك نفسك . . .

وانتبذت به المرأة مكانا فى أقصى الحانة ، فأخذ مجلسه حيالها صامتا عبوس الأسارير ، على حين صفقت المرأة تنادى :

« بيير » . . . قنينة نبيذ لصديقنا الفنان .

ثم أقبلت عليه تحد إليه النظر ، وصوتها المنغم يسائله :

أين «سوزان» يا «جاك» ؟ . . . مالى أراك كابى النفس ، محطم الأعصاب؟ . . . أثمة جديد؟ . . . صارحنى . . .

واضطرب الفتى فى جلسته ، وتناول الكأس يفرغها فى فمه ، وقد تجهمت أساريره ، وتشعثت نظراته ، وغمغم :

« سوزان » مريضة ... ثمن الدواء

وتلاعب بلوحته فى لفائفها ، وهو يهمس :

أيطيب لك أن تشترى هذه الصورة ؟ إنى فى حاجة إلى المال ...

وانفتل يفض عن اللوحة لفائف الورق يعرضها على المرأة وهو يهمهم : إنها «سوزان» ... الدواء ...

فضغطت يده تطرى براعة التصوير ، وهى تردد :

ما أجملها لوحة ... سترى ... تمهل ... لا تحمل للأمر هما ... دعنى أتصرف ...

وانطلق الفكر بالمرأة هنيهة ، ومالبثت أن اقتلعت جرمها من المقعد ، وعجلت إلى بهرة المشرب تصيح بالحاضرين ، وقد لوحت بالصورة :

سادتى ... انظروا ... تحفة رائعة ... هل لكم فى اقتنائها ؟ ...

وشخصت الأنظار إلى اللوحة تتفحص ، وساد الحانة سكون ...

فصاحت المرأة تحضهم ، وتثير فيهم الحمية والحماس :

هيا يا كرام ... فرصة لا تعوض ...

فبادر صوت يخشخش مقوّما الصورة بثمن بخس ، فأردف

صائح يزيد فى الثمن ، وتبعه ثالث ورابع وخامس يتسامون بثمن الصورة شيئاً بعد شىء ، وانقلب المشرب حلقة مزايدة تتضارب فيها الأرقام وتتنافس الأصوات ، وتقدمت المرأة خطوتين مشرئبة يعلو صوتها على صوت القوم ، وهى تعرض ثمنا أرفع مما بذلوا جميعاً ، والفتى فى مجلسه يكرع من قدح النبيذ فى حيرة ، تتنازعه أخلاط المشاعر ، يسائل نفسه : أى موقف يقفه الآن ؟ أتراه يبيع « سوزان » أم تراه يشتريها ؟ ...

ليس يدرى على وجه التحقيق ...

كل مايدريه الساعة أن « سوزان » فى جمالها الخلاب ، فى فتنتها الرائعة ، فى رقصتها البارعة ، فى وداعتها المحببة ، تلوح الآن فى مهب النزعات والنزوات ، يساوم فى ثمنها هذا الجمع المخمور ! . . .

سحقا للأيام التى تريده على أن يعرض صورة « سوزان » فى سوق المزايدة ، كأنما هو يقودها جارية لتباع فى سوق الرقيق !

ولكن فليتحمل هو الغضاضة من أجل «سوزان» ، ولتتحمل هى معه من أجل دوائها المنشود ...

لم يستطع أحد أن يزيد على ماعرضته ربة المشرب ، وأصبحت الصورة من حقها وحدها ...

وتراجعت نحو الفتى طلقة الأسارير ، مترنحة الأعطاف ، تقول :

هؤلاء الأغبياء لا يقدرون الفن قدره الحق ... لا أجاملك ... إنها لوحة بديعة ... إنها أغلى من أن تقوّم بثمن ...

وضربت يدها فى جيبها تستخرج حافظة النقود ، ودفعت إلى الفتى برزمة من النقود ثمن الصورة الذى رست عليه المزايدة ، فأقبل على جبينها يودعها قبلة عرفان للجميل ، وانصرف على الفور يتهلل وجهه .

طوت ستارة المسرح صاحبنا الفنان منطلقاً من الحانة ...

وغمرت الأضواء قاعة المسرح ...

فى مستطاعك أيها الرفيق إذا فتحت صحيفة البرنامج أن تقرأ من شأن الفتى ما تبغى أن تقف عليه ...

لقد امتلأت يده بالمال المرموق ... بل بالدواء الشافى ... ستعيش « سوزان » ...

وطفق الفتى يتعهد فتاته بالدواء والتمريض ، حتى تماثلت وانكشفت عنها العلة ، وأنشأت تعاود حياتها كما كانت تمارسها من قبل ، وفتاها فخور يرنح أعطافه الزهو بما أسدى إليها من رعاية ، لا يمن عليها بالقول ... ولكن يشعر فى وليجة نفسه بأنه تعهدها

فأحسن التعهد ، وحنا عليها فأبلغ فى الحنو ، واستنقذها من براثن الداء فكتبت لها النجاة...

لقد أصبحت الفتاة جزءاً منه ، عليه أن يواصل رعايته ، وعليها أن تنقاد وأن تذعن لنصحه ، وأن تتلقى منه الحياة فى فطنة وتطلع ... إنه رائدها الأمين فيما تصبو إليه من رفعة وتألق ...

وبلغت الفتاة فى ذلك الشأو البعيد ، ورأى مدير الجوقة التى تعمل بها ما وصلت إليه من تقدم وامتياز ، فأعلى مكانتها فى برامج الرقص ، وما زال بهـــا حتى أصبحت النجم الأول فى الجوقة الراقصة ، لاتتوسط مدار الرقص تتثنى وتختلج ، وقد أحدقت بها الأضواء الكاشفة ، حتى يهب الرواد متحمسين يطلقون صيحات الإعجاب ، دامية أكفهم من تصفيق حاد ، ملتهبة حناجرهم من صياح وهياج ...

لقد خلقها حبيبها « جاك » خلقاً جديداً ، جلاها فى الإطار اللائق بها كما يجلو إحدى صوره تزينها الأصباغ والألوان : الزى الملائم للرقصة ، والخلجات المناسبة النغم ، والغمزات الداعية إلى افتتان الجماهير ...

ليست «سوزان» الآن إلا صنعة «جاك» ، تتهافت عليها الجوقات المشهورة ، وتتنازعها دور اللهو الرفيع ...

وتصرمت الأيام كأنها لحظاتك التي قرأت فيها هذه السطور من صحيفة المسرحية يخطها القدر وفق هواه ...

وتخفت أضواء القاعة ...

وتتثاءب الستارة القرمزية عن مشهد الحانة . . . حانة « مدام مارتين » .. وهي تستقبل وجه الفتى « جاك » عابس السحنة تكسو محياه غشاوة من كآبة واغتمام ، متخذاً مجلسه في توفز ، يقبل على الشراب يكرع قدحا تلو قدح في تهور وجنون ، وعيناه معلقتان بالصورة تلتهمانها في مكانها الكريم من الجدار ، تنطوي جوانحه على حسرة واغتمام ، وفمه ينفرج عن بسمة كريهة بلهاء ، يكابد ألواناً من الشقوة والبأساء .

إنها صورة « سوزان » في رقصتها الفاتنة المبدعة ...

وما لبث أن غامت عيناه ، وانسدل عليهما ستار شفاف الدمع ، وسرعان ما وثب من مقعده ، واقتحم الطريق إلى الصورة ينتزعها في عنف ، وينحى عليها تحطيما وتمزيقا ، وهو يهذى بكلمات لم يستبن منها إلا قوله :

انتهت « سوزان » .. لم يبق منها شيء . . . لم يكن بد من أن أنتقم ... من أن أقتلها ... من أن أمحو صورتها من معبد الفن ومحراب الخلود ...

وركض ذليل القسمات ، مختل السير ، أهوج التلفت ، يبعثر إشاراته فى ذهول ، وابتسامة عريضة بلهاء تبتلع وجهه الكاسف ، والجمع حوله شاخص مشدوه .

ويهبط الستار على المنصة .

النظارة فى قاعة المسرح مهتاجون لموقف ذلك الفتى الذليل ، يرثون له ، ويشفقون عليه ، ويتساءلون فى شأنه :

ما باله يقضى على فنه ويقضى على حبه فى تلك الثورة الجامحة؟!

ما مصيره ... ؟

وإذا صحيفة البرنامج تسجل من أنباء للفتى نبأه الحاسم ... ذلك أن رجال الأمن عثروا بعد أيام على حطام جثة طافيـة على وجه المـاء فى ناحية من نهر «السين» ، تبين بعد فحص وتدقيق أنها لفتى، فنان اسمه « جاك دوفال » لم يكشف لغرقه سبب إلا لوثة أضرت بعقله ، عرفها منه جيرته فى أيامه الأخيرة . .

وينفرج الستار عن المنصة فى مشهد الختام لكى تطالعنا «سوزان» عليها شملة من فرو رفيع الثمن ، وقد تألقت عليها جواهر خلابة ذوات أضواء وألوان . . .

تراها على حالها تلك من الثراء والبهاء ، وهى تبارح البـاب

الخلق للملهى الكبير الذى تعمل فيه ، وقد أتمت رقصتها التى تسميها «هكذا الحياة» ! ...

فما إن بدت بالباب حتى تلقفتها قبلة ظامئة ملتهبة من فم السيد « رنان » مدير إحدى الشركات ، وهو رجل بائن القصر ، قمىء الجرم ، تخاله أيها الرفيق فى خطوه وتعوّجه كرة من المطاط تترجح بين أقدام اللاعبين .

ذلك هو الذى يبادلها حباً فواراً يمرحان فى بحبوحته ، ويستغرقان فى نشوته ، متعاهدين على وفاء وإخلاص .

وينسدل الستار عليهما فى منصرفهما يغربان فى ضحك ومزاح...

وكأنى بزورق الأطياف يقلع بى عن مرفأ الذكريات ، وهى تتبدى لى فى الأفق البعيد ، متزايلة عنى رويداً رويداً ، تذوب فى يقظة الحياة ، كما تذوب قطرات من الماء فى خضم مواج ..

وإذا صديقى يمد يده إلىّ فى تلطف يقول :

ما بالك تائه الفكر ؟... إليك لفافة تبغ !...

فتناولتها ، ولبثت أنفث دخانها ، فلا يعتم أن يتطاير متزايلا فى الفضاء ، كما تتطاير الأطياف والذكريات والعبر !

الجياع

ألفيتها فى شارع من شوارع القاهرة ...

هى امرأة مبتور لها ساق ، بادن جرمها ، عليها ثوب هلاهل لا يظلل فى الصيف من وقدة الشمس ، ولا يدرأ فى الشتاء عادية الرياح ! يستقبلك منها وجه مكور يعروه شحوب ، أظهر ما فيه حاجب أشعث متجهم قطوب . حواليها بناتها الثلاث ، كبراهن لم تتخط عامها العاشر بعد ، تراهن على مدرجة الطريق سربا من الإوز فى ضجة ومراح ...

وتقطع المرأة نهارها ناشرة جملها الحزينة الضارعة شباكا تتصيد من القلوب شوارد العطف والإشفاق ، فلا يزايلها النهار إلا وقد جاءها رزق كريم .

على هـذا النحو من الحياة استأثرت المرأة بركنها المختار على ناصية إحـدى الدور الشواهق ، تتجدد عليها الأيام فى بحبوحة أمن وسلام .

تنطلق بناتها الثلاث متعلقات بمواطىء الأقدام ، لسانهن يلهج بالأدعية ، وأكفهن تتلقف مايلقى إليهن من هبات .

كان من بين الدور فى ذلك الشارع العريض دار للاستشفاء تراحبت فيها الجنبات ، وهى تمور بمن أعضل فيهم الداء من صادرين ووراد .

ويوما لفظت تلك الدار فيمن لفظت شيخاً ضامر العود يقتلع على أديم الأرض قدمين متورمتين فى خطوات يثقلها الأعياء ، صدره الضيق يتراءى خلف الأسمال دائب الخفوق ، كأنه يلفظ أواخر ما اختزن من أنفاس ، وألفى الطريق يموج بالحركة ولا يفتأ يموج : سيارات متهورة تنتهبه على عجل ، وسابلة تتزاحم فى سيرها مندفعة الخطا تكاد تلتحم فى شجار وصدام .

وخشى الرجل أن يدس بنفسه فى ذلك الملتطم ، فيهلك لا محالة .

خليق به أن يأوى إلى جدار ريثما ينال الطريق فتور وجمود . عليه أن يحط رحاله هنيهة يأمن فيها أخطار الطريق .

ومالبث أن احتواه الجدار عن كثب من أم الثلاث ، فتجمع يقتعد الطوار ويستنشى نسمة دعة وجمام .

وتطاولت إليه عين المرأة تتبين وتتشوف ، وفى نفسها بوادر

ثورة تختمر ، ثورة شك وارتياب ، وتواردت على الطريق أفواج الناس تتفلت منهم نظرات إشفاق وترحم ، يتعمدون بها ذلك القعيد المبتئس فى ضعته وانكساره ، لا ينبس له فم بشكاة ، ولا تمتد منه يد استجداء ...

وماهى إلا أن عرج عليه بعض السالكين ينفحونه بما قسم الله له من عطاء ...

لم تكن واهمة إذن تلك المرأة الكسيح عندما حدثتها نفسها حديث التشكك والاسترابة ...

ألم يتجشأها ذلك البناء بعد أن ضاقت بها أحشاؤه ، فلما احتواها الطريق كان التعب قد نال من ساقها الصحيحة كل منال ، فتمهلت تستريح هنيهات امتدت بها أياما بل سنوات ؟ ...

سخاء الناس هو السبب كل السبب ، فالمرء مسوق حيث الرزق ميسور ، والانتجاع منشود حيث لا رهق ولا عناء ...

مالها تثور وتمور ...؟

لنهادن الزمن، ولنطاول الأحداث ، فالروية خير ، ومن تأنى نال ما تمنى ...

عسى أن يكون الرجل الواغل سحابة صيف عن قليل تتقشع، فيعاود سماءها صفاء ..

وأسفر صباح الغد ، وسماء المرأة ما برحت غائمة، فهذا الأعجف الوارم القدمين قد اتخذ سبيله إلى الطريق، واقتعد مكانه من الطوار، فلما تزايل عن عرض الأفق خيط النهار انكبت المرأة تعد ما تجمع لديها من عطايا ، فهالها تضاؤلها وانكماشها ، حتى إنها كادت لا تفى بنفقات اليوم ، لولا ما تلتقطه بناتها الثلاث فى مساعيهن من رزق . . .

إن الرجل المزاحم ليمتص من دخلها الشيء الكثير ، فلا غرو أن يستهويه هذا المكسب ، فيلزم ركنه عاكفاً عليه لا يريمه فى غداة أو عشيّ ...

حان لها أن تناهض الواغل الجسور . . . وتقصيه عن سبيل الكسب والغنم .

لا بد أن يرحل عنها هى وعيالها ، ليعاودها دخلها المألوف .

ومنذ هذه اللحظة لم تأل جهداً فى إيذائه والشغب عليه ، طورا يمتد لسانها أفعى تنفث السم ، وطورا تسلط عليه بناتها سياط عذاب ...

لن يهدأ لها بال حتى يخلى لها الرجل وجه الطريق ، فإما الجلاء وإما الفناء ...

واستمر الحال على هذا النحو : الضامر الأعجف لا يزال

مكانه . يتقبل الأذية والمشاغبة بجأش رابط وصدر رحيب ، فتزداد المرأة من حمل عليه وتنكيل به . . .

وكان هنالك على ميسرة الطريق حانوت هين المنظر ، تعصب جنينه لافتة من نسيج امتدت إليه يد البلى فمحت ما يرقشه من كلمات إلا اسم الحاج «سرسور» ، وهو طاه عريق فى مهنته ، لفظته القصور بعد أن أسن ، فافتتح هذا المطعم بصبابة من المال كوفىء بها على سالف خدمته ، فانطلق يستكمل حياته هانىء العيش رافه البال .

كان أول ما يتجلى منه للناظر كرش تتبعج ، وشارب ينتفش ، وأوداج نافرات ، لا يكاد يتحدث إلى أحد فيشتبك معه فى شأن من الشئون الجارية حتى تجده قد احتقن وجهه ، وكثر لغوه ، واندفعت حنجرته تقذف بقارص من اللفظ وجارح من التعبير ، وأكبر ما يهيجه ويثير حنقه أن يحوم حول حانوته الهمل من أطفال الحى ، وبخاصة البنات الثلاث ، فإنه يسب ويلعن ، ولا تلبث قدمه أن تركل ذات اليمين وذات الشمال ، كأنه دابة من دواب الجر خف حلمها ، ونفد صبرها .

لقد استن الرجل لنفسه سنة لا يحيد عنها ، ألا وهى الاقتصاد ، فهو لا يسخو ببضاعته إلا لمن يبذل الثمن الربيح ، فإن توافر له هذا

الشرط الأصيل من التعامل ، دفع بالصحاف مترعة من يده الصناع .

أما أن يتصدق بما جهد فى إعداده وطهوه من الطعام ، فهيهات ذلك هيهات ... كفاه غدر القططة تعيث فى مطهاه خرابا تنهب مافيه ، فيقع بين مخالبها الطعام الشهى ، تلوكه بين شدقيها سائغ المذاق ، فما تخلص منه حتى تلعق شفتيها ، وتتلاعب بشاربيها كأنما تخفى دليل جريمتها ، وسطوها عليه .

بالأمس اختفت من المقهى دجاجة مسمونة ، فلما سأل صبيه فى شأنها امتدت عينه إلى هرة متنمرة تتمطى على قارعة الطريق ، هى موضع التهمة ورأس الفساد ...

أثمة ما يدعوه أن يغير مسلكه حيال أولئك الصبايا اللواتى يتحمل فى سبيلهن الغبن والخسار ؟

إن هن أدين الثمن فإنه لا يردهن إلا متملئات يستمرئن لذيذ ماوعته بطونهن من مأكل هنىء المذاق .

ظل الموقف على حاله بين ذلك الثالوث : المرأة والطاهى والواغل الأعجف ، لا تغيير ولا تبديل حتى موسم الاصطياف ، فقد نزح أكثر الموسرين من سابلة الحى ينتجعون شاطىء البحر ، وأصاب الشارع العريض من جراء ذلك نقص وإجداب .

وامتدت كل يد إلى ما اختزنت تستوفى منه حاجات العيش ،

غير أن لكل مدخر نفادا ، فحطت على ثالوث الطريق غبرة الفاقة، وتدسست أنياب الجوع إليهم تقطع الأحشاء ، أما المطهى فكانت تتراءى فيه صحاف الطعام ذوات ألوان ، وأفراد الثالوث لا يصيبون منها غير لفاظة تلقى إليهم على مدرجة الطريق .

وعشية شوهد غطريف من أهل الريف أنيق البزة ، تتخايل عليه أبهة الجاه ورونق الثراء : عباءة موشاة ، وطربوش لامع الكى بميله على فوده ، وفى يده عصا مقبضها من ذهب أخذ يضرب بها الهواء ضربات عشواء .

وما إن مضى يذرع الشارع حتى اضطرب الثالوث القابع ، فانبرى لسان الكسيحة يشكو سوء الحال ، وانصرفت البنات الثلاث يأخذن بحاشية العباءة الفضفاضة فى صراع مرير ، ومثل الطاهى فى جرمه البدين يطرى بضاعته فى جمل بيانية تتفتح لها النفس ويتحلب الريق ، أما صاحب القدمين المتورمتين فما زال قابضا على لسانه يستغرق فى صمت متشابك موصول .

لقـــد ضاق غطريفنا ذرعا ، فاعتدل يهش بعصاه على سرب البنات اللجوج ، ورمى الطاهى بنظرة فيها ترفع واستكبار ، ولوى عنقه عن الكسيح لا يباليه ، والتفت إلى الرجل الصموت يرعاه بنظرة إشفاق ، وما كاد يخطو نحوه خطوات حتى فزعت يده إلى

جيبه تستخرج قطعة من نقود ، وانحنى يدسها فى يده ، ومن ثم انصرف إلى سبيله يخب فى عباءته ، وهو يتلاعب بعصاه ، ويترفع برأسه ذات اليمين وذات الشمال .

وجمدت الصبايا الثلاث فى مكانهن مبتئسات ، واسترسلت الأم تتطاول على الدهر بالشتم والشباب ، أما الطاهى فقد زحم حانوته بجرمه المتكتل تتعالى كتفاه وتنخفضان فى تحسر واستياء ، ولبث صاحب القدمين المتورمتين فى مكانه يتلاعب بقطعة النقود مشرقة أساريره ، ملتمعة عيناه بوميض الرضا والارتياح ، حامدا الله على ما سخره له من موفور العطاء .

وبعد برهة شوهد الرجل يزايل مكانه ، دالفا إلى حانوت الطاهى ، واندس فى مضطرب الداخلين من خدم وعمال ، حيث يلجون المطهى من بابه الخلفى ، وماعتم أن خرج محملا برغيف متنفخ بأفلاذ من شواء رشراش يفوح منه قتارشهى ، وأسلم نفسه إلى الطريق يأخذ سبيل العودة ، لتتوفر له جلسة مريئة بين ذاك الرغيف الساخن وشرائح اللحم الحنيذ .

وما كاد يستوى فى ملاذه حتى أشرع أصابعه الخمس فى فرجة الرغيف ليستخرج قطعة من الشواء يضعها تحت أضراسه ليسكت بها حدة الجوع ، إلا أنه توقف ، إذ ارتقى إلى سمعه مواء قط جاء

يتمسح بقدميه ، وهو يرأرىء بعينيه فى مسكنة واستعطاف ، فهم الرجل أن يلقى له بنصيب ، غير أن يده لم تساعده كأن الفالج مسها ، وإذا بمسحةمن كآ بة تغشاه ... لقد تراءت له البنات الثلاث واقفات حياله فى ذلة وتخاضع ، فاغرات الأفواه يحدجن الهرة متحفزات .

وفى خلجة تشبه خلجة الغضب نادى صاحب القـــدمين المتورمتين كبراهن ، فتدفعت صوبه تحت الخطا ، وفى عقبها أختاها ، متلهفات ، فما كادت تدانيه حتى ألقى إليها بالرغيف وما يحتويه ، وزايل مكانه فى عتمة الليل يزحف فى خطاه !

ثمالة الكأس

اتخذ « عبدالعظيم أفندى صقر » سبيله إلى إدارة المحكمة الحسبية برما يتسخط ...

لم يظفر الرفاق منه بتحيته الندية ، على مألوف عادته ، حين كان يصابحهم مهدياً إليهم التحية ، تتراحب على شفتيه بسماته الرقاق ...

إنهم يجدونه اليوم جهم القسمات ، يمضى إلى مكتبه ، فاسحا خطاه ، وما زال يلوك بين شدقيه كلمات التنغيظ فى تململ واضح واستياء ملحوظ ...

إنه لايحسن كبت حنقه ، كلما توعرت عليه المشاكل ، وأمضته الشواغل ...

وما عتم أن تهالك على كرسيه يسلم إليه جرمه الثقيل ، فاضطرب المقعد من تحتـه ، وصرّت قوائمه ، وأوشك الرجل أن يتهاوى لولا أن تماسك .

وراح يجمع ماتفرق من أنحائه ، ويتوازن فى مجلسه ، ويتحسس مسند الكرسى فى تأفف وعتاب .

ومن ثم عمد إلى طربوشه ينحيه عن رأسه، فبدا أجرد يتلمع ، وإلى سترته يعالج أزرارها يكشف صدره ، وسرعان ما أخرج من جيبه منديلا عريضاً طفق يمسح به وجهه ، وقد تفصد عرقا ، وخلع حذاءه عن قدمين متورمتين انكفأ يحركهما فى رفق ، يذود عنهما كلال السير ، ثم تناول غليونه يحرق طباقه العطر . .

فما لبث أن سرى فى أوصاله فتور وتراخ ، أسلمه إلى فترة جمام ينعم فيها بالدعة ، لولا ما اشتد به من ظمأ ، فانبعث يصفق ، منادياً ساقى الإدارة يطالبه بكوب من عصير الليمون المثلوج ، وهو مضطجع فى جلسته يتمصص ، كأنه يستمرىء لذة الشراب المنشود .

ومر به الوقت فى تباطؤ ، دون أن يجاب إلى مطلبه .

أيعانده هذا الساقى الوغد ... ؟

أيبطىء عنه فى إحضار كوب من شراب الليمون ... ؟

ألم يفطن إلى أنه حران يبغى أن يبل صداه ، واليوم صائف ، والهواء حبيس .

ما زال هذا الخادم الشغوب على حاله من العبث والعصيان ،

لم يتب ، على الرغم من إسداء النصح إليه ، والعفو عن زلاته ، مرة بل مرات .

أجل ، زلاته ... إذ كان يمكر «بالعدوى أفندى» أحد موظفى الإدارة ، ويشغب عليه ...

وبلغ به الأمر حد التطاول والسفاهة ، وأوشك التحقيق معه أن يفضى به إلى حرمانه الدخول إلى الإدارة ، وموافاة الموظفين بما يطلبون من طعام وشراب ...

لقد عفى عنه ، رحمة بأسرة له يدعى أنه عائلها الأوحد .

حقاً لقد سمع «العدوى افندى» من هذا الساقى السفيه ما يتأذى به الرجل الحر .

تسامع الموظفون يومئذ بأن هـذا الساقى مدفوع إلى معاكسة «العدوى أفندى» من بعض زملائه الكائدين له ، والذين ينفسون عليه صلته بمدير الإدارة ...

وما كان للساقى أن يتخذ أسلوباً من التبجح والمعاندة فى معاملة «العدوى أفندى» لولا أنه مشدود الأزر بذلك التحريض والإغراء لقاء ثمن معلوم .

ماذا فى الأمر؟ ...

إن «الصقر أفندى» لا يبيح أن تتكرر مأساة أمس معه اليوم ...

أثمة محرض حقود يثير عليه ذلك الساقى المأجور . . . ؟
هيهات لأحد أن ينال من « الصقر أفندى» منالا ... هيهات ...
إنه لا يطيق التلاعب والمداورة .

وأخذه الحماس ، فرفع عقيرته محنقاً ينادى ويتأمر :

يا ولد ... يا «باجورى» ... أين كوب الليمون ؟. .منذ ساعة خلت وأنا فى انتظارك...أقصر الشر ياولد .. ووافنى بالمطلوب .

وسرت فى الحجرة غمغمة استياء ، مصدرها بعض الرفاق ، فلم يعرها « الصقر أفندى » اهتماما ، وثار صوته مغضباً ينادى :

يا «باجورى» ... يا ولد يا «باجورى» .

وانبعثت كفاه تظاهران صوته الجهورى فى فورة من تصفيق يصك الأسماع،فهبت زوبعةمن جيرة الحجرة تهيب به أن يتحشم، وأن يرحم طمأنينتهم من هذه الجلبة والضجيج ، وهم يقولون له :

صبرك... صبرك ..إن لإدارة المحكمة حرمة عليك أن ترعاها .

أنى له الصبر ، وقد بلغ منه العطش كل مبلغ ، حتى نضب منه الريق ، وتشقق حلقه ؟

إنه لم يعد يطيق الانتظار لحظة .

وهم يهدر بالقول ...

إلا أن الكلمات حشرت فى حلقه لا تنطلق ، فقد بادره أحد

الرفقة يهمهم فى لهجة تشوبها سخرية واضحة :

ألست تعلم يا «صقر أفندى» أن الكلام يزيدك من عطش ؟!

فأشرع الرجل إلى رفيقه النظر فى جفاء ، دون أن يحير من جواب ، ولوى عنقه نحو النافذة مأخوذاً يبعثر النظرات وهو يبرطم .

ودلف « الحاج عزيز » الساعى يتنقل بين المكاتب فى عوده السمهرى ، وحذائه الضخم الترب ، وحلته ذات الأزرار الصفر الصدئة ، وقد تلوث يده على أضاميم القضايا وأضابير التحقيقات ، وطفق يوزعها على جمع الموظفين ، كل بحسب عمله واختصاصه ، فى تكاسل وإبطاء .

وأفضى به المسير إلى «الصقر أفندى» متشمخا فى جلسته ، مغضن الجبين ، أشم الأنف ، فمال عليه يناوله حظه من الأوراق المصلحية ، فانثنى الرجل يتفحصها ، وما لمح ظرفا يتطاول له من بين الرزم حتى أمسك به يتثبت من عنوانه ، فألفاه معنوناً باسمه ، ففضه على عجل يقرأ ما احتواه ، بعد أن وقع «للحاج عزيز» فى دفتر التسليم .

رسالة رقيقة تشكر له الوزارة فيها نشاطه طوال خدمته ، وتأسف إذ تنهى إليه قرارا بمنحه إجازة يحال بعدها إلى المعاش .

وطوى «الصقر أفندى» الرسالة فى حسرة ، مرتعش اليد ، وقد

شعر كأن عوده يتهاوى تحت وطأة تلك الصدمة النكراء ...

وما عتم أن سنحت مراحل حياته تتخايل له ، كمشهد حزين لجنازة حارة : إنه عرك الوظائف الحكومية منذ فجر حياته، متقلبا فى دواوينها العديدة ، مهيض الحظ ،منكمش الرزق، محسور النفس بالتخلف عن الأقران .

أتلفظه الوظيفة بعد أن مكث فى صحبتها أكثر من ثلاثين عاماً ، تطمس رونق شبابه ، وتستشف عصارة فتوته ؟

إنه ما فتىء بحمد الله قادرا على العمل ...

ماذا يحسن أولئك الذين يزهون بالشباب أن يعملوا ..، ؟

إنهم لا يستطيعون وحق السماء منافسته فى شىء مما يحسن ... نظرة واحدة منه تكفى لكى يتعرف المطلوب من المذكرات والأوراق والقضايا ، فى دقة ومهارة واستيعاب..

يا لضيعة الكفايات !...

يا لخيبة الخبرة والمرانة والإتقان !...

لم يكن « الصقر أفندى » يحسب أن يد الزمن قاسية ، تسومه يوما هذا الجزاء المجحف المرير .

لقد انفتل يقبل على عيشه رافه البال ، رضى النفس ، تختله

بروق الأمل . فكلما مثلت له النهاية المحتومة تركها لغده ، وانصرف هو إلى يومه يدبر حاضر شواغله .

وسارقته الأيام ، فإذا به يصل إلى خاتمة المطاف ، يترك الوظيفة على كره .

إنه لم يعد العدة لهذه النهاية ، ولم يتسلح ليوم الزوال .

كيف يواجه عهد الكسل والخنوع ؟ .

أيقتل نهاره فى المشارب والأندية ، يداور بائعا ، أو يتسمع إلى حديث جليس ، أو يدنو من مهب الأنغام يبعثها المذياع مثلة كأنها أصداء مناشير تنحت فى الخشب وتأكل فيه ؟ .

الحق أنه لم يمارس هذا اللون من الحياة قبل .

كان ينصرف من عمله إلى بيته ، فيتلقاه مغناه كما تتلقى الحظيرة مطية كادحة متعبة ، بعد طول رهق ، فتظل مستلقية تتمرغ على الثرى ، حتى يدعوها الصباح إلى معاودة الكد والكفاح .

يا له من بائس مغرور ! ... وقد صدق فيه المثل :

المنحوس منحوس ، وإن كان على باب بيته فانوس !

وتداولته الأيام بالبأساء ، تضن عليه بالرفاهة والتألق ، وتلك هى ماضية به على خطتها معه لا تحيد .

ليس ثمة ما يدعوها إلى أن تبتسم له ، وتغير منهجها منه .

أيملك فى آفاق الوظيفة العليا ، ظهرا قويا يركن إليه ، ويعول عليه ، لتهادنه الحياة ، فيشق فيها سبيله إلى مجد ورفاهية ؟

ألا سحقا للأيام !

ألا بعدا للوظيفة !

لم يلق منها خيرا ولا رعاية ، حتى هذا الكرسى ، كرسى الوظيفة ، يضيق به ، ويتململ منه ، وهو يجلس عليه حاذرا يخشى أن تلتوى قوائمه فتسقط به على الأرض ، محطم الضلوع ، كسير الذراع ، إن لم تهشم رأسه ، وتخلع رجله .

ما باله يبكى على الوظيفة ؟ .

ماذا أفاد منها ؟ .

ماذا لقى من الرؤساء ومن الأقران ، ومن دونهم ممن يعملون معه ؟

أما الرؤساء فكانوا دائما يخادعونه ويمنونه الأمانى ، لكى ينجز لهم ما يجشمونه من الأعمال . . . من الأثقال ! .

فإذا حان حين المثوبة والجزاء ، نسوه وذكروا من تربطهم بهم روابط أو منافع لا شأن لها بالوظيفة أو بالعمل .

وأما الرفاق فبئس الرفاق . . . إن كفايته على العمل توغر صدورهم عليه ، فيأتمرون به ، ويكيدون له ، ويسخرون منه ،

ولا يدعون فرصة إلا استغلوها لكى ينتقصوا حقه ، ويحطوا من قدره .

إنهم صغار السن . . . صغار الأحلام ! .

حسبه منهم ما يلقاه اليوم . . . آخر يوم له فى العمل . . . اليوم الذى يشرب فيه على مضض ثمالة الكأس .

حسبه منهم موقفهم حين نادى يطلب كوبا من شراب الليمون .

تألبوا عليه ، وأساءوا إليه ، بدلا من أن يعينوه على بلوغ مأربه .

إنهم ينصرون عليه ذلك الوغد الوقح فى إبطائه عنه ومعاندته له .

كيف لا يشتد به الحنق فى يومه المشئوم ؟ .

لا طاقة له بالسكوت .

ليأخذن هذا الساقى بالحزم ... ليكونن به عنيفا أشد العنف ..

لطالما نفحه بألوان من العطايا والألطاف .

لم يغلظ له فى قول ، ولم يتأخر عنه فى مطلب .

أيكون جزاؤه منه ذلك التوقح والتبجح والإهمال ؟

ذلك هو يتردد على مرمى العين منه ، يوزع أقداح الأشربة

على الموظفين بين صغير وكبير، والصينية تتلألأ بأقداحها على يديه في غدو ورواح .

إن « الصقرى أفندى » ليشعر بريقه ينضب ، وأشداقه يصيبها تشقق !

أيلبث على هذه الحال ، والشراب منه قريب ؟ .

ما أشبهه بحقل أجدب ، يقشعر أديمه من العطش ، والقناة منه قاب قوسين ، لا ينال منها التملؤ والرى .

وبغتة احتد صوته ينادى :

يا « باجورى » . . . يا ولد . . . يا « باجورى » .

وبينما كان فى ندائه مسترسلا ، انبعث له أحد الزملاء ينثنى على أذنه يسر إليه كلمات ، و « الصقر أفندى » مصغ إليه يتسمع فى اهتمام ، تتراءى على وجهه بوادر اهتياج مكبوت ينذر بالعواصف والبروق .

وتابع الزميل همسه له ،والرجل محتق نافر الأوداج ، منتفش الشارب ، متضرم النظرات ، يصيح :

سيرى وسيرون . . . أو تحسبنى مغفلا لا أفهم ؟ . . . الحقيقة واضحة . . . الولد مدسوس علىَّ . . .أوعيت ؟ . . . « جندى أفندى» هو رأس الشر ، وأساس البلية .. إنه يضمر لى كل حقد.. حسابه منى عند الله ...

ويتكفوه عليه الرفيق مرة أخرى يخافت بقوله ، محاولا تهدئته وعيناه تخالس رفقة الحجرة نظرات ملؤها غمز ينطوى على خبث ومكر .

ونحاه « الصقر أفندى » عنه ، وهو يزأر فى تحد :

لا يهمنى .. ليسمع ... إنه يجنى على هذا الوغد ... على هذا « الباجورى » الغفل .

ويطالعه وجه « الباجورى» المسنون ، وهو يتخلع فى مشيته ، كاسراً إحدى عينيه ، مشمراً عن ساعدين ضامرين تتلوى عليهما عروق زرق نوافر — كأنها ديدان الأرض ، تتحوى على عود يابس ، فى حقل مجدب .

فصدمه « الصقر أفندى » قائلا :

أين عصير الليمون ياولد؟... عصر الله عمرك ، وأطاح بك إلى الجحيم تصلى بنارها ولظاها .

فتلبث « الباجورى » فى طرف الحجرة يرمق « الصقر أفندى » بنظرات مراوغة وخداع ، يرسل جملة وئيدة :

كفى يا « صقر أفندى » ما عندك من حساب الأشربة حتى اليوم ... لقد ثقل الدين . وعندما يثقل الدين تجف الأشربة ، وحتى الماء يغيض عن صاحب الدين !

فصاح الرجل به ، والرعشة تنتظم نبرات صوته :
وما شأنك بالحساب ثقل أو خف ؟ . . . ستقبض مالك غير منقوص ... أتشك فى ذمتى ؟ ... ألم أكن أنقدك كل ماتطالبنى به، وفوق ما تطالبنى به ؟

— على أية حال يا «صقر أفندى» لقد نفد اليوم شراب الليمون!

— متى نفد ؟ ... طلبت منك كوباً منذ حضرت ... قبل أن يطلب منك غيرى ... أنت لاريب كذاب...والله إنك لكذاب !

وجعل يدق المكتب بقبضته ، مؤكدا قوله ، محتدم الصوت .

فاحتد « الباجورى » يجمجم :
لا أسمح لك أن ترمينى بالكذب . . . خـــير لك أن تؤدى ماعليك ، بدلا من أن ترمى الناس بباطل القول . . . ليس عنـدى مال أدبر به المقصف ، وأصبر به على الديون يطول بها الأمـد . لقد بعت شراب الليمون لمن نقدنى الثمن . . . لا تغضب يا « صقر أفندى » . . . حلمك . . .

— أى ديون طال بها الأمد ؟ أقصر لسانك . أمثلك يطالبنى بدين ؟

— إنه مالى عندك ... أتريد أن تأكله ؟

فتشامخ « الصقر أفندى » يغمغم :
لك عندى قروش ... ستأخذها على حذائى ! .

فعقب « الباجورى » هازئاً :

لا فض فوك يا «صقر أفندى» ... حرى بك أن تبيع حذاءك وتسد بثمنه دينك ، لتخلص ذمتك من مال الناس !

فأجابه « الصقر أفنـــدى » بصوت ضخم ملىء ، عليه مسحة الاهتياج والغضب :

أنا أبيع حذائى يا كلب ... إن لم تمسك لسانك خلعت نعلى ، وانهلت بها على صدغك ، لأردك إلى تأدب وصواب .

— يا « صقر أفندى » هذا لا يليق برجل فى آخر أيامه . . . أتريد أن تطبق المثل : « أكثر من الفضائح وأنت رائح » . ؟

وهنا بلغ السيل الزبى « بالصقر أفنـدى » وأيقن أن رفاق المكتب الحاقدين عليه ، العالمين بسر الرسالة التى تلقاها الساعة ، الشامتين بيوم خروجه ، قد أغروا به هذا الساقى السليط ، ليناكده فى هذا اليوم العصيب .

لقد طاش حلمه ، فقفز قفزة دفعته عن كثب من «الباجورى» وهو شاهر يديه فى وجهه يصيح :

ويلك منى ... لن تفلت من يدى إلا مهشم الرأس... لأرينك أنت ومن يعينك على العبث والتبذل .

واندفع كالعاصفة الهوجاء ، هاجما على « الباجورى » يأخـذ

بخناقه يشتبك معه فى عراك : اليد تصفع ، والقدم تكسع ، فى استماتة وجبروت ..

وقام بعض الرفاق فى تلكؤ يتظاهرون بالتفريق بين الخصمين، على حين كان « الصقر أفندى » مسترسلا فى لكماته وركلاته ، وإنحائه على الساقى بجرمه الثقيل ، حتى كاد النصر الساحق يحالفه، إلا أنه شعر بوهن يسرى فى أوصاله ، وفتور يرخى يديه . . . فتملص منه « الباجورى » ، وماشعر بالحرية حتى عمد إلى هجوم خاطف ، ودفع « الصقر أفندى » دفعة طرحته على مكتبه ...

فجمع الرجل قواه المحطمة ، وتناول محبرة قذف بها فى وجه الساقى ، فأصابت جبهته ، واختلط مدادها الأحمر بما تسايل من الشجة الدامية .

هنا نهض الرفاق من المكاتب .. فريق يحيطون «بالباجورى» يعينونه على تضميد جرحه ، ويطيبون خاطره ، قائلين له فى تظرف ومواساة :

لا بأس عليك . . . افرض أن أباك ضربك . . . أنت الذى أثرت غضبه ...إنه رجل مسن ... سامحه !

وفريق آخرون من الموظفين أحاطوا « بالصقر أفندى » يمنعونه من التمادى ، قائلين له :

حرام عليك ... كدت تقتله بين يديك !

فتطاول الرجل يرمى بنظراته الحامية إلى خصمه الجريح ، ومالبث أن شمخ بأنفه ، وسوى من هندامه ، وراح يفرق طريقه بين جمع الموظفين ، متهاديا فى مشيته ، يغادر دار المحكمة ، وهو يستمرىء نشوة الانتصار .

وضاع عن الأنظار فى زحمة الطريق ، لايدرى إلى أين المساق ، ولا يعرف له وجهة هدف ...

خيانة

— ويحك من سادر عربيد ...

وألفت «صبيحة» تلك الكلمات النابية متقاتلة فى شدقيها تتدفع ، كأنها قذائف تترى ...

وانبرت فى زجرة جارحة تتخذ من زوجها « فوزى » سلة تستودعها قامة الألفاظ والنعوت ، عزقة الحلم ، متنمرة النظرات ، و « فوزى » قابع صموت يطويه موج السباب ، ملء لواحظه تساؤل واستخبار ...

ما الخطب ... ؟

فيم اللغو والهذر ...؟

غدر وخيانة . . .

استخفاف ومجون .

زوج منكودة ، وزوجية يعصف بها الذبول والتصويح .

لقد نكث « فوزى » العهد ، وعبث بقدس الزواج .

فصل القول أنه خان «صبيحة» زوجه فى صحبة الغانية «أنوار» :

قامة باسقة ، خصر نحيل ، عينان نفاذتان يظلهما جفنان مكحولان لغمزاتهما تتحطم صلاب الإرادات ، وتتفتح مغاليق القلوب .

نعم الخليلان بجلسة أنيسة بين لمة من الصحاب ، يتقارعون كئوس الصهباء في ملهى المروج الخضر ، على أطراف المدينة ، تحت غاشية الليل ...

وبين معابثات الرفاق جنح «فوزى» يضم إليه « أنوار » وقد تقشعت بينهما الكلفة ، واستخفت بهما النشوة ، فطفقا يتناقلان رخيص النكات ، وجرىء المداعبات ، وما لبثت يده أن انسابت على صدرها اليانع ، ناهلة من جسدها البض متعة أى متعة ...

وانبعثت فى حنايا الملهى هتفات موسيقية تثير كوامن المشاعر ، وتضرم فى الرؤوس وقود الشراب ...

واستجاب الخليلان لداعية الصبوة ، فتهاديا إلى المرقص ينقلان خطاهما على إيقاع النغم ، وذراعه يهصر خصرها اللدن فى جسارة واهتياج ، وعلى كتفه مال رأسها الفينان ينفح منه عطر نفاذ ، يزيد لواعج الفؤاد من ضرام ...

وشعر بها تبثه خلجات نهدين يشرئبان فى زهو واعتزاز ، وهى بين يديه تتأود ، كأنها ثعبان انتشى فى حمية الأنغام .

وتطلعت إليه «أنوار» تتملى وسامة محياه ، وقد ضرجته نضرة الشباب تمازجها لفحة الشراب ، فانفرجت شفتاها تكشفان عن مفاتن ثغر واله يستسق عذب اللثمات ، فما عتم « فوزى » أن أهوى عليه منهوماً يفنى فى قبلة عارمة ...

وأدبر «فوزى» وصاحبته عن الملهى ، يطويهما الظلام فى شملة من الألغاز ...

مسكينة «صبيحة» . . .

تأذت عيناك بهذا المشهد الأليم ، واكتوت منك الضلوع بنار الذلة والصغار .

صبرا ...

لقد عيل صبرى بعد هذه الخيانة النكراء .

لامناص لى من الفراق .

صفحا ...

كيف تطوع لى نفسى أن أغضى على كرامة تهدر ، وقدس يتدنس ؟

لزام أن يكون بيننا طلاق ...

واسترسلت « صبيحة » تزمجر فى حنق ، وعلا صوتها محتد

النبرات ، وتواصلت كلماتها تتناثر كأنها كسار الزجاج يتطاير على «فوزى» فيدميه .

وانتظمتها رعشة ، وتملكتها نوبة من النحيب ، وفمها بين الفينة والفينة يردد فى جمجمة وخفوت :

خائن ... دنىء .

بربك «فوزى» هدىء من روع زوجك .

أقبل عليها ياشجاع ...

لا تتهيب ...

لاطفها فى مرح ...

قبلها فى نهم ، حتى تدمى منها الشفاه .

رب قبلة عارمة غفرت ذنوباً جساما .

وحث إليها الخطا ، ولسانه يلهج باستعطاف وضراعة ، وفمه عامر بقبلات رقاق ... وما كاد ينثنى على خدها يودعه صفو الحنان ، حتى لقيته «صبيحة» بلهجة واخزة تغمغم :

أأنسى لك ما أسلفت لى من إساءة؟... إليك عنى ... لا تقربنى .

وأعرضت عنه ماضية ...

فاجتذبها « فوزى » يستدنيها منه ، وما أوشك أن يفعل حتى

انفجرت تسكيل له لكمات شدادا ، وانهالت على صدره بقبضتيها توجعه ضرباً فى غير وعى ولامبالاة ...

وتسللت بواكير الضوء خلال النافذة تنفض عن « صبيحة » غاشية النعاس ، فما إن لامستها خيوطها الدافئة حتى هبت متفزعة، وبين يديها حشايا رقاق تنعطف تحت لكماتها الشداد ، وشخصت ببصرها تتبين « فوزى » زوجها فى سخط ، فإذا هو عن كثب منها يحف به دفء الفراش ، وإذا هو يسبح فى نوم وادع ، وعلى ثغره ابتسامة وصفاء !

سر المغازل العربية

شهر يولية ...

الحر قد بلغ ذروته ، فأضحت «القاهرة» أتونا يتوقد ، والأبنية فيها قماقم جمر ...

لم يسعنى إلا أن أصدف عن تلك البوتقة الحامية ، راحلا إلى «الإسكندرية» أنشد فى جوها رخاوة النسيم وهناءة البال ...

واندفع القطار على قضبانه اللامعة يشق بحيزومه بساط الريح منشدة عجلاته أهازيج تبعث المراح ، فتعالى من خيشومه دخان موصول ، وأقبل على الأرض يلتهمها فى شره ، وقد توهجت عينه تكشف له ستر الليل البهيم ...

وظفرت بمقصورة القطار خالية ، فأسرعت إلى بابها أغلقه ، وألقيت بجسدى على حشية المقعد أستريح .

وألفيتنى أخرج من حافظة أوراق صحيفة مسائية انصرفت أطالعها بعين ناعسة ، ونفس ملول .

وسرعان ما برمت بتلك الخطوط المتشابكة ، فنحيت الصحيفة

عنى ، ولويت عنق إلى النافذة أسرح النظر فى أجواز الفضاء .

ومازال القطار يهدهد المسافرين بهزاته ، فاستشعرت سارية من الفتور تدب فى أوصالى، وغفت عينى غفوة جمعتنى بطائف من الأحلام : الشاطىء يمور بالقصاد، البحر غضوب تتلاطم أمواجه محتدة ، والراية السوداء تخفق فى أعلى السارية آخذة على المستحمين طريق البحر ، تنذر الجسور منهم بهلاك وشيك ، ووجدتنى لا أبالى بالخطر ، فألق بنفسى بين الأمواج أصارعها فى غلبة وجبروت .

وتعالى من الشاطىء صـــوت الحارس ، مشفوعا بصفيره المتقطع ، وهو يلوح بقلنسوته البيضاء يثنينى عن متابعة تلك المحاولة الجموح .

وأثار منظر الرجل سخريتى ، كلما أخذته على الشاطىء يتردد ويتلدد ، تحوطنى أنظاره بالتعهد والإشفاق ، فانطلقت على متن الماء أغالب الموج ، غير آبه بذلك الحارس الفج الذى لا يتلمس إلا سبيل الإمرة والسلطان .

وبينما أنا كذلك إذ أسفرت لى فتاة فى ريق العمر استهوتها المغامرة ، فمرقت تتحدى الموج بقلب جسور .

وتجمعت على الشاطىء حشود راجفة قلوبهم ، لاهفة أنفاسهم، يحدجوننا فى ترقب ، فشعرت من فورى بعزة ، وتملكنى زهو .

وما عتمت أن عنف بى البحر ، فطفقت أمواجه تهبط بى وتطفو ، وإذا أنا مسترق القوى لا قبل لى بالمقاومة ، فما تمالكت أن أطلقت صيحة استغاثة استجابت لها الفتاة ، نخفت نحوى تغالب الموج فى عنت ، وهى تمد لى يد العون ، فتشبثت بها أصيح :

لا تتركينى ... إنى أموت ... أغرق .

وإلى هنا تفزعت من نومى ، واستدوت فى رقدتى مهتاجا أحاول جاهداً تخليص نفسى من هذا الحلم الكئيب ، لا أهدأ ولا أستقر ، وبين يدى شىء أحتويه واعتصره ، وشعرت بلطمة عنيفة تتهاوى على صدغى من ذلك الشىء الذى أحتويه بين ذراعى ، كان لها فعل السحر فى تبديد تلك الأوهام ... وحملقت بعينى أتبين الأمر ، فتكشفت لناظرى الحقيقة جرداء من كل زيف .

فألفيتى لم أبرح مكانى من القطار وأنا متشبث فى شدة بذراع فتاة فى بسمة العمر ، على وجهها سيماء الغضب ، تتملص منى وهى تهدر قائلة :

يالك من عربيد، قليل الحياء .. تدعى النوم لتشاكس الناس!.. حقاً إنك لوقح ! ...

وانتفضت واقفة ترمينى بالنظر الشزر، ثم أدبرت عن المقصورة

وهي تمضغ كلمات التأفف والاستنكار ...

أما أنا فقد بقيت فى مجلسى ذاهلا أتحسس صدغى بيدى، وكأنى ألمس الجمر ...

ووافى بنا القطار محطة « سيدى جابر » فغادرته على عجل، أتدسس فى الزحام متواريا عن الأنظار، وما فتىء شبح الفتاة ماثلا لى يشغل بالى ويمض خاطرى .

زايلت الفندق من غدى فى الضحوة العالية ، ومضيت أجول فى دروب « الإسكندرية » راجلا ، وملت فى مسيرى على متجر أبتاع علبة من لفائف التبغ .

وفيما أنا أنقد البائع الثمن ، إذ بيد تربت كتفى فى شدة كدت منها أنكفىء ، فدرت على عقبى أتبين ، وفى نفسى تختلج بوادر ثورة ، فأدهشنى أن أرى صديق « أسعد » رفيق الدرس وهو مقبل علىّ يضمنى فى شوق ، وينثر على وجنتى قبلات الود ، وصحت :

أهلا بك يا «أسعد» ... أهلا ... أهلا .

وحملق فىّ يتثبت منى ، كأنه لا يصدق عينه ، وهو يقول :

حسين ... شدما أنا مسرور بلقائك !

— لم أكن أتوقع أن ألقاك ... هذه مفاجأة طيبة .

وبعد أن فرغنا من التحيات ، قال لى صديق ، وهو ينأى عنى

بضع خطوات :

تعال أقدمك لأختى ...

واستدار يجذب شقيقته فى نشوة ومراح ، فما وقعت عليها عيناى ، حتى عرفت فيها فتاة القطار ، فى قوامها المشيق ، وعودها اللدن ، وجمالها الوهاج ... وقال الصديق :

أختى « ليلى » ... صديقى « حسين » .

واقتربت منى تمد يدها على استحياء ، وفمها يغمغم :

تشرفنا .

فانحنيت أشد على يمينها ، وأنا أحس الأرض تميد بى ، وقد أرتج علىّ فلم أنبس بقول .

وأقبل « أسعد » علىّ يستخبرنى كعادته معى ، لا ينضب لأسئلته معين :

متى حضرت ؟

فوقفت حياله حيران يخوننى منطقى ، ولا يسعفنى تدبيرى ، فجمجمت بعد برهة صمت :

منذ قليل .

— مصادفة حسنة أن نلتقى اليوم .

وتشاغلت عنه ببائع اللفائف أحاسبه ، فسمعته يزجر بقوله :

لقد ذهب الحياء وقل الأدب . . . الشبان تغازل الفتيات على وجه الطريق دون مبالاة ولا كرامة . . . انظر . . . انظر يا سيدى إلى هذا الرقيع .

فعدلت إليه بوجهى أتبين ، وإذا به يسترعى نظرى إلى أقصى الشارع حيث يتراءى فتى يتتبع فتاة وهو يعابثها فى غير حياء أو خجل ، وكأن السبيل خال إلا منهما .

لم أملك أنا إلا أن أبدى الإنكار لصنيع هذا الفتى المهذار ، فانبعث صديق « أسعد » يؤيدنى بقوله :

أتصدق يا أخى ؟ حتى فى القطار تغازل كرائم الأوانس . . . كانت أختى قادمة بالقطار السريع البارحة ، فتطاول عليها مغازل سفيه ، فاضطرت أن تلطمه لطمة ردت إليه عازب عقله واتزانه ... يا للوقاحة . . . يا لقلة الأدب !

فأطرقت ساهما يتفصد من جبينى العرق ، على حين انصبت من فم « أسعد » ألوان الشتائم واللعنات على رأس ذلك المغازل العربيد ، دون أن تأخذه به رحمة ، وختم سبابه وهو عاقد الجبين ، ينبعث من عينيه شواظ يخترق الحجب ، قائلا :

آه لو سقط بين يدى ! ... إذن لطحنت رأسه طحن الرحى ، ولسويت أنفه بوجنتيه !

وبسط يده يستعين بها على الوصف والتعبير ، وأقبل يضرب الهواء كأنه يكيل لغريمه اللكمات . . . وكادت تصيبنى يده فتهشم أنفى ، لولا أن تراجعت أتفادى من الضربة ، فنظر إلىّ نظرة ملاطفة وتودد يقول :

عفوا يا صديقى . . . إن دمى منذ البارحة يغلى بين عروقى... ليتنى أعرف السبيل إلى ذلك الوغد الوضيع !

وهنا أسرعت « ليلى » إلى أخيها تقاطعه بقولها وهى تلقى علىّ نظرة حنق عابثة :

هلا دعوت صديقك إلى تناول الغداء معنا ؟

فصاح متهللا :

أجل . . . أجل . . . هذا مفروض . . . بل واجب . . . لا جدال فيه ولا نقاش ...لا بد أن يتغدى معنا ... اليوم لاشك . كادت قصة مغازل القطار تنسينى قواعد اللياقة والأدب . . . له الجحيم ... ذلك ... ذلك الكلب . . . يصعب علىّ أن أتجاهله ... أختى تغازل . . . وأنا ساكت لا حول لى ولا طول . . دمى يغلى فى رأسى . . . آه لو عرفته !

وازدردت ريقى فى تهيب ، أتأسف لاعتذارى عن تلبية تلك الدعوة الكريمة، لأسكته ، ولكنه أصر يرغمنى وقد انطلقت أساريره

المتجهمة ، وعاوده بشره يقول وهو يعانقنى ، ويربت ظهرى فى عنف أو شك قلبي منه أن ينعصر بين ضلوعى كما تعصر الليمونة :

دعتك أختى ، ولا يصح أن تخيب لها رجاء . . . إنى منتظرك فى الساعة الواحدة .

وقبل أن أجيبه أخرج من حافظته بطاقة ومدها إلىّ وهو يهمهم:

العنوان واضح ، ولن تجد عناء فى الاهتداء إلى المنزل .

وأردفت « ليلى » تقول فى تعاطف ، وهى تكسر لى عينها :

سنكون فى انتظارك . . . أرجو ألا تتخلف .

فأجبتها فى ارتياح :

يسعدنى ذلك كل الإسعاد .

وبعد الغداء ضمنا بستان الدار نترشف القهوة ، وغاب عنا الصديق الغيور ، وأظلتنا فترة صمت . . . وتشجعت أمزق شمل السكون بقولى:

إنى آسف لما بدر منى البارحة .

— لقد انتهى الأمر .

— الحق أنى معذور .

— لا داعى للتعقيب على ما فات .

— أحب أن أطلعك على سر ... أقسم لك إنى كنت فى حلم !

ـــ لاشك أنه حلم جميل .

ـــ كان جميلا ... ولكن ما رأيته فى اليقظة أجمل منه وأفتن .

فندت منها ضحكة لاهية ، وقالت وهى تتجافى عنى بنظراتها :

بمن ياترى كنت تحلم ؟

ـــ الأحلام فيها متسع للمحرومين مثلى !

وأسبلت لى جفنها ، وتعمدتنى بقولها :

لابد أن تكون امرأة .

فأجبت من فورى :

لم تكن لى فى حياتى عروس أحلام .

ـــ أحقا ؟ . . . غريب ذلك !

فرددت عليها فى تحمس :

لقد أصبح لى اليوم ...

ووضعت قدح القهوة على المنضدة ، وألقيت عليها نظرة تكمل لها ما أعنى ، فالت بوجهها عنى تنظر فى أرجاء الحديقة ومسالكها ، وهى تهمهم :

لقد كنت عنيفا فى القطار حين أخذت بيدى ... أذهلتنى !

فقلت ، وما زلت أنظر لها نظرة ملاطفة وتودد :

وأنت كنت رقيقة حين لطمتنى . . . وددت أن أقبل

تلك اليد التى انتشلتنى من الهلاك ، وردتنى إلى الحياة !

فسمت بعينها إلىّ متطلعة متشوقة ، وعلى فمها ابتسام مريب ، وقالت :

أتهزل . . . ؟

— بل أنا جاد كل الجد .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى ماتفهمين.. إلا أن يكون قد سبقنى إليك عروس أحلام

— الطالبون كثير . . .

صدمتنى هذه الجملة ، غير أنى تشجعت أسألها :

— ألم يقع اختيارك على أحد بعد ؟

— الحق أنى لم أختر حتى هذه الساعة.

— شد ما أنا سعيد .

— أليس الأمر يقتضى منا مهلة تفكير ؟

— فلنجرب حظنا . . . على بركة الله .

فرنت إلىّ ، وابتسامتها تتلعب على شفتيها ، وغمغمت :

ربما كنت قاسية ... كما رأيت !

إنى على استعداد أن أخوض التجربة . . . لم يخذلنى حظى حتى الآن .

ـ أنت وشأنك . . .

وعاد إلينا صديق « أسعد » يسألنا :

فيم كنتما تتحدثان ؟

فأجابت « ليلى » ، وهى تبتسم :

لا شيء ... صديقك يرى رأيك فى سفاهة المغازلين !

وأوشك « أسعد » أن يعقب على الحديث ، وقد احمرت حدقتاه ، وانتفخت أشداقه ، واستجمع يثرثر ، فقاطعته أقول وأنا أنظر إلى ساعتى :

لقد أطلت جلوسى . . . أزف موعد القطار

فغمغمت « ليلى » تسائلنى مبهوتة :

أمسافر أنت اليوم ؟

فغمزت لها بعينى فى مساترة أقول :

سأعود بعد أسبوع . . . إلى الملتقى .

وعلى مر الأيام بقى أمر المغازل العربيد سراً من الأسرار ، كلما عرض حديثه بينى وبين زوجتى « ليلى » أغربنا فى تضاحك ومراح ! . . .

المعلم خميس

— ١ —

نجمت من دار المعلم « خميس » النجار صيحـــات استغاثة مكروبة تشوبها زمزمة خشنة تهدر وتتوعد ، وتراءى من نوافذ البيت شخصان يصطرعان فى عنف واحتداد : رجل أشعث عملاق وامرأة قميئة عجفاء . . .

وجأر « المعلم خميس » لائماً يتهدد :

— لست عبداً لك يا امرأة السوء...حسبي من لسانك السليط.

وسرعان ما أسرع السوط يهوى به على جسد « تفريحة » زوجته يلسعها لسعات كأنها شواظ من نار ، وصوته الأجش العكر يحمله النسيم من نافذة الدار ، وقد تثاءبت على مصراعيها فى ظلمة الليل ، فيتطاول إلى الجيرة بقوله :

هذا هو جزاء توقحك يا امرأة . . . كثير عليّ أن أحتمل. ثرثرتك وهذيانك ... خذى ... لا يروضك غير هذا ...

ويرتفع السوط عوداً على بدء ليسقط على جرم المرأة سقطة عشواء يدميه .

كثيراً ما كان ينشب بين « المعلم خميس » وزوجه « تفريحة » مهاترات لاتخلو من غلظة وقساوة .

اعتاد المعلم «خميس» أن يرتاد حانة وضيعة فى ثلة من أحلاس الشراب ينادمهم حتى أخريات الليل ، لايعبأ بالوقت ، فلا يرتد عنهم إلا وتباشير الفجر تلوح ، غير راع ما للزوجة عليه من حقوق بل واجبات ...

ماله وما لها ؟ ألا تأكل وتنام !

فى ذلك — على حسب زعمه — كفاية وعدل .

أما أنها تشاركه العيش ، وتقاسمه الحياة كإنسان له شعور وقلب ، فهذا تبجح منها واعتـــداء ، يأباه وإن انطبقت الأرض على السماء .

وفى مسلكه هذا ماساء « تفريحة » وأقلق بالها ، فإنها حريصة على كرامته ، أمينة على داره ، فلا غرو أن تأنف منه ذلك الغى وأن تخشى عليها وعلى عيالها ولوعه بالخمر ، فإنه غير قادر أن يرد نفسه عن طغيانها فى كل يوم ، حين يغلق متجره ، ويترك لنفسه العنان يرتع كما يحلو له أن يرتع فى ثلة من صحبه ، كتلك الكلاب الضالة

ترتاد الأماكن والأزقة ، غير مبالية بشيء .

كانت دائبة النصح له ، آنا تأخذه برفق ، وطورا تثور عليه وتعنف به ، لا يصدها عن ذلك ماعسى أن ينالها من قوارص لسانه وبطش يده .

فى هذه الأمسية الوديعة بقمرها النير ، ضاقت المرأة بأمرها حينما ثاب إليها رجلها مخمور الرأس يتطوح ، فثارت ثورة جامحة تنكر عليه ، وتندد به .

وبينما هى محمومة الأوصال ترغى وتزبد ، كان هو فى غيبوبة يحلم أحلام السكران ، وقد انبسطت حيال عينيه دنيا بهيجة الرواء تشيع فى نفسه أنس الحياة ، فانبرى طروبا يترنم بالأهازيج متمايل الأعطاف .

فتصدت له زوجه تناقشه الحساب فى خشونة وجد ، وراحت تكدر نشوته ، إذ تعرض له الحياة ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن ثم تراءيا يتعاركان ويتقاذفان بالمقذعات من الشتيمة والسباب .

— ٢ —

وتطاير إلى أسماع الجيرة شظايا الملحمة الزوجية التى تنافس فيها سلاح اليد واللسان .

فاحتشد فى الدار شتات من أهل الحى ، وتقدم الحشد « المعلم

جمعة » الخياط وكان أعلاهم مقاما وأقدرهم على بيان وفصل خطاب »، فصلصل صوته يأمر صديقه بإخزاء الشيطان، والصلاة على النبي»، واغتفار ما كان .

وأمسك « بتفريحة » يدفعها صوب زوجها، ينهى إليهـــا في حزم قوله :

قبلى رأس المعلم، واطلبي منه الصفح والسماح .

فتمنعت المرأة بمنكبيها، وهى تنساق بقدميها، تقول :

لا تحرجني يامعلم، إن مقامك عندى عظيم، ولا أستطيع لك عصياناً ولا مخالفة .

ولما دنت من مجلس زوجها « المعـــلم خميس » أحس وفور كرامته وارضاء عزته، فاستلان منطقه وهو يقول :

لولا حضورك يا « معلم جمعة » لكان وكان ...

فعقب « المعلم جمعة » في تشمخ وهو يخاطب الجمع :

لقد تصافيا . . . انتهى الأمر . . . الحمد الله .

والتفت إلى الزوجة يأمر :

يا « تفريحة » . . . اذهبى فهيئ لزوجك العشاء .

ومرقت هي كالسهم تستجيب لما أمرت به في طوع، واستأذن « المعلم جمعة » في الانصراف، فتسلل الجمع يتبعونه بعد أن استتب

الأمن والوئام فى ربوع الدولة الثائرة ، دولة « المعلم خميس » .

وساد سكون .

— ٣ —

تربع الرجل فى قعدته على الأرض ليصيب طعامه على خوان من خشب ، وأمامه أرغفة ثلاثة وبصلة كبيرة وحزمة من كراث مترعرع وصحن تزحمه كومة من الرز يتسنمها رأس ضأن يتقاطر منه دسم فواح .

فأكب « المعلم خميس » على مائدته ، وقد اهتزت خياشيمه ، ونديت شفتاه ، وتهيأت أضراسه لافتراس ، وشمر كميه الفضفاضين وأشرع أصابعه فى جوانب الرأس ينتزع منها الهبرة بعد الهبرة ، ويدفع بها إلى فمه ، ولا يعتم أن يشفعها بحفنة من الرز ، يتبعها عود من الكراث ومزقة من البصل ،يستعين بهما على اللقم والالتهام .

وظل على هذا النحو : فمه يتلق ، وأضراسه تطحن ، وبلعومه يسيغ ، حتى أصاب كفايته من وقود ينفـــذ فى مسارب جسمانه فتوة وقوة .

وكانت « تفريحة » قد انتبذت من الحجرة مكانا تجمعت فيه لتكون طوع إشارة زوجها فيما يريد ، وجلست تكفكف دمعها بطرف خمارها المغبر ، وهى صموت ترنو إلى الرجل يصر بأسنانه

ويزدرد طعامه ، فتتمصص ريقها التافه وتزدرد الهواء الفارغ .

ورأت المرأة زوجها يدفع بيده المائدة ، ويصد عنها بكتفه ، فنهضت إليها تنحيها عنه ، وتفسح له مجال التمدد والاسترخاء .

وفزعت يد المعلم إلى مطاوى جلبابه يستخرج منهـــا علبته العزيزة التى يستأمنها على وديعته الغالية : قطعة المخدر يلوكها بين شدقيه ، فتندس فى حنايا جسده تشب فيه غرائزه ، وتصعد إلى رأسه تملأه بالمباهج والمسرات .

ثم عمد إلى لفافة تبغ فأشعلها ، وجعل يجذب أنفاسها رانيا إلى سحائب الدخان تنبسط أمام عينيه ، متأودة كأنها حسناء متجردة يتلعب خصرها فى مراح .

وأرسل الرجل من صـــدره تجشؤة عالية يستمرىء صفو العيش ومتعة الحياة ، وحانت منه لفتة إلى « تفريحة » فألفاها فى غلالة كاشفة قد أهملت ساقها تتعرى ، وهى تصيب عشاءها فى تؤدة وسكينة واستسلام .

فجعل يحدد إليها النظر ، وعقب اللفافة بين إصبعيه يلذعهما بناره ، فما هى إلا أن نهض متثاقلا إلى مخدعه .

وجاز فى طريقه بزوجه وهذه الكلمات تتساقط من بين شفتيه: أتريدين أن يطلع علينا الصبح وأنت تأكلين؟ . . أريد أن أنام .

وسرعان ما تحرك مدار المصباح ليهبط بذبالته ، فإذا الضوء في مخدع « المعلم خميس » خافت يتخشع .

وسمعت تنهدات وزفرات .

— ٤ —

طالع الرجل فجر رائق بسام .

فألفى زوجه يسبح على محياها الوسن ، ناعمة في فراشها الدافيء بهناءة الأحلام ، كأنما تداعبها مؤنسات الأطياف .

حدجها مليا ، ثم هدر في غلظة :

انهضي طواك الردى . . . الشاي يا امرأة السوء .

وأنحى عليها يهزهـــا هزاً دائبا ، فتفزعت تذهلها البغتة ، وتطلعت وقد تطايرت من رأسها مباهج الأحلام . وظلت ترنو إليه في عجب تستوضحه جلية الأمر ، فبادرها في توقح :

— معدتي خاوية تتضور . . . لا تبطئي وإلا بطشت بك وسحقت رأسك .

وصدف عن الحجرة يعد بطنه لفطور مريء ، شاحذا أسنانه وقد علاها الصدأ بسواك منتفش الشعيرات مسنون الأطراف .

وتمطت « تفريحة » تنفض عن حنايا الضـــلوع ثمالة ليلتها

الساهرة الممتعة ، ومن ثم صلبت عودها فى فتور ، وانسابت تخطر ماضية إلى المطبخ .

وما هى إلا دقائق حتى كانت أنفاس النسيم تتمسح « بالمعلم خميس » وهو ماض إلى حانوته يصفر صفيراً فيه حنين .

— ٥ —

ما إن فتح « المعلم خميس » باب حانوته حتى جر منه مقعداً جلس عليه يتلقى تحيات جيرانه يداهنونه بالقول ويدارونه ، والرجل فى ضجعته منتفش يغضن جبينه ويزوى ما بين عينيه كأنه يتخذ لوجهه قالبا صلبا غليظا يستقبل به الصبية الذين هم دعائم حانوته وآلات التنفيذ فيه ، ومن عرقهم يستخلص كسبه الميسور ، وهو على كرسيه متربع يأمر وينهى ويصب اللعنات على رؤوس الأشهاد .

وتقاطرت الصبية عليه يصيب كل منهم حظه من استقبال معلمه تبكيتا وتنديداً ولوما على الإبطاء والتأخر .

انتظم الفتية داخل الحانوت منكبين على آلاتهم مستأنفين أعمالهم فى تكاسل وفتور .

وصرف المعلم أنظاره إليهم يتصفح الوجوه ، وما لبث أن صاح محتد الجرس :

— أين « مدبولى » ؟

فلم يجب أحد .

فصرخ ثائر النبرات :

هل صمت أسماعكم يا أوغاد . . . أين « مدبولى » ؟ . . . لم يستقم أمره . . . إن أفلح حلقت شاربى .

ومر بإصبعه بين أنفه المتدلى وفمه المتورم يتحسس ويستوثق.. وهو يجمجم :

يا ولد يا « مليم » ... تسكنان حارة واحدة ، أنت وهو ... أسأل فلا تجيب ؟

وتعثرت الكلمات على فم الغلام ، فإذا « مدبولى » يقبل محجم الخطوات متهيب النظرات ، فانبرى له المعلم يغمز بعينه يقول :

صباح الخير . . . آنست !

ولم تطمئن نفس الغلام بهذه الكلمات التى يعلم أن معلمه إذا ساقها كانت مقدمة لبطشه وأذاه ، فقال فى تخاضع :

أمى مريضة...

وسرعان ما نهض المعلم يركل الصبى ركلة عنيفة وهو يغمغم :

مريضة . . . اذهب إليها يا عين أمك . . . إن أفلحت حلقت شاربى .

— ٦ —

وفيما كان « مدبولى » يرجع أدراجه ندى العين كسير النفس، يبرطم ، صادفه فى طريقه «أبو عزيزة» أحد عملاء «المعلم خميس». فاستوقف الغلام يسائله :

مالك يا « مدبولى » ... ألم تنتهوا من صنع صوان العروس ؟

فقال له الفتى شرقا بدمعه يمسح أنفه بظهر يده :

أتظن أن « المعلم خميس » ينجز لك شيئا ؟ . . . عوضك الله فى نقودك . . . لا تتعب نفسك .

فهرول الرجل مستأسدا يستشيط غضبا ، وهو يقلب الأمر على مختلف وجوهه فى الطريق إلى حانوت النجار .

فلما رآه المعلم «خميس» مقبلا عليه جهم القسمات، وقف يتصنع البشاشة له والترحيب به ، فعاجله « أبو عزيزة » يقول :

أين صوان العروس؟

— يا رجل ، قل صباح الخير .

ونادى :

يا ولد يا « مليم » قهوة للمعلم « أبو عزيزة » .

— لاداعى ...أرنى الصوان... لقد قبضت ثلاثة أرباع الثمن ، وموعد الزفاف قريب ، وكل يوم تؤخرنى إلى غد...أرنى الصوان .

وهم بأن يقتحم الحانوت ، فاستوقفه « المعلم خميس » يسكن من روعه ويمنعه من الدخول ، فاندفع الرجل متقحماً وهو يبرطم :

لقد خربت الذمم . . . كفانى من غشك .

فثارت ثائرة « المعلم خميس » واستشعر أن حرمته تمتهن ، وأن كرامته تهدر ، فصرخ محتداً كالثور الهائج :

أنا لاذمة لى ؟ . . . أنا غشاش ؟ . . . أتجرؤ على ذلك ؟

— وأكثر من ذلك . . . أنت لص . . . محتال .

واحتدم بينهما عراك تجلى عن « أبى عزيزة » ملقى على الطوارين ويتوجع ، والدم ينبثق من ركبته .

وحملته مركبة الإسعاف إلى مستشفى قصر العينى ، حيث قضى فيه شهراً مجبور الساق ، ولكن الجرح تعذر على البرء ، فلم يكن من بتر الساق بد .

وأما المعلم «خميس» فقد أجنه السجن شهوراً طوالا هدت من قواه ، وزعزعت من كيانه ، وخرج من محبسه إلى داره قعيد الفراش يتسخط ويهدر كأنه الأسد الجريح .

وأخذ الرجل يذبل ويضمر حتى غدا فى سريره طيفا من الأطياف ، ضامر العود ، واهن الصوت ، شاحب القسمات .

— ٧ —

وصبح يوم انبعث من بيت « المعلم خميس » صياح ينعى رب البيت وجباره العنيد .

فارق الحياة ، ومضت روحه إلى السماء تفتش عن مقر .

وهرعت جموع النائحات يندبن رجـــل « تفريحة » وقد توسطتهن فى حيرة وذهول ، تستجدى عينها دمعة تطفىء بها لوعة النفس ، فيستعصى عليها الدمع .

إنهـا تشعر بغائلة الوحدة تهصرها وتضنيها .

لم تحسب أن ساعة الفراق مرة المذاق .

أيموت « المعلم خميس » ؟

ذلك ما لم يكن لها على بال .

وبرز النعش فى حلته المهيبة يخطر ، ومن خلفه جمع المشيعين والمواســـين ، بينهم « أبو عزيزة » بساقه الفريدة ، يتحامل على عكازته ، ويرمق النعش بنظرات غامضة ، وهو يتمصص شفتيه ولسانه يتمتم :

الله يسامحك يا « معلم خميس » .

وعن كثب منه يدب الفتى « مدبولى » ويمسح عن عينيه دمعة

ساذجة وهو يقول :

الله يرحمك يا معلمى . . . الصبر بالله .

وفى أعقاب الجمع تضطرب ملاءات سود ينبعث من بينها صوت « تفريحة » المقروح تولول متصايحة :

الوداع يا « معلم خميس » . . . رجل ولا كالرجال !

ومر النعش يجوز بالحارة يخطر ، كأنه فى خطراته على الأعناق يباهى بما له من سطوة واستعلاء ، لا يبالى من شىء !

وعاشا في ثبات ونبات

— ١ —

بارح « مصيلحى أبو سويلم » داره فى الضحوة العالية ، مكتشب النفس ، يغشاه قطوب ، وهو يضرب الأرض بخطا عجال ، فيثير خلفه غلالة رقيقة من غبار .

لقد أبطأ عن عمله ، عليه أن يستدرك أمره .

دخل تربة « المعاتيق » أشد ماتكون امتلاء بالحركة والضجيج ، فانتحى فى مساترة وتحرز نحو دوّار الشيخ « نوار » يتولى على مصطبته العارية نوبته من الحراسة ، وكانت من قبل لأبيه زهاء عشرين عاماً لا ينافسه فيها أحد ، فما إن تخطفته يد المنون حتى نصب « مصيلحى » خلفاً له ، ولم يكن قد ناهز العشرين بعد .

اعتلى « مصيلحى » مجلسه بعد أن تحرر من مداسه الترب ، يلملم نفسه وقد تداخل فى عباءته الصوفية القاتمة ، لا يتراءى منه غير عينين زائغتين تستبد بهما حيرة وتيه ، وبوابة الدوار عن كثب منه متثائبة فى فتور تفسح الطريق لمن هب ودب ، فمن مطايا

مهزولة تنوء تحت أحمال البذور والسماد ، إلى مركبات بالية تنوح عجلاتها تحت أعباء الحصاد ، إلى زرافات ووحدان من الكبار والصغار يغدون ويروحون لا يصدهم رقيب ، فالباب نهب لقصاده يعيثون فيه ، لا صوت ينهر الواغلة والمتطفل ، ولا عين تحصي ما تقله ظهور المطايا من خيرات .

معذور « أبو سويلم » .

إن الشواغل تحاصره ولا تفتأ تحزه كأنها فى لحمه إبر النحل .

وانكب « مصيلحى » على أحزانه يجترها كالجمل فى مبركه يزدرد ما اختزن من زاد .

ويل له مما يسترجع من أحاديث مريرة تدور فى شأن زوجه « ريحانة » .

بنى بها يافعة فارعة ، ولبث معها ترفرف عليهما السعادة بأجنحة من ذهب ، يئوب إلى داره عشاء مكدود الجسد فيستقبله بيته رحب الجناب ، يشيع فيه البخور الزكى ، فما هو إلا أن تنساب فى مسارب نفسه راحة واطمئنان ، وسرعان ما تنصب بين يديه صينية الطعام فواحة القتار ، تتفتح لها النفس ، فيقبل عليها يصيب من أطايبها أوفر نصيب ، ولا يلبث أن تمتد يده إلى قلة تعطر ماؤها بقطرات

من ماء الزهر ، فيترشف من عذبها رشفات منغمة كأنها على فمه رنات لحن طروب .

وعن قرب منه يتراءى عود ممشوق ذو وجه ضحوك ، وعين مكحولة تمتد منها نظرة حدب إليه ، لتكون طوع إشارته فيما يوفر له الراحة والدعة

بيد أن الدهر لم يشأ أن يدع سماء هذا البيت صافية لا تسجيها الغيـــوم .

تلك هى العروس قد حال عليها الحول فى ظل زوجها ، وما زال البيت مجدبا من تباشير الخصب المنشود .

فتحدث الناس فى أمر الزوجة العقيم ، وحاولت الألسن أن تنفذ إلى صدر الزوج توغره على تلك الشجرة الخاوية ، فلم يدع « مصيلحى » بابا إلا قرعه يلتمس عنده الفرج ، وجعل يتسمع إلى ألوان من النصح والإرشاد ، وانقلبت « ريحانة » فى مصطرع حياتها الجديدة كأنها كعب الزهر يرمى به الزمن على بساط الحظ ، فإن طاشت الرمية أعيدت التجربة مرة بل مرات .

على هذا النحو من التجارب والمحاولات سارت المرأة فى ملتطم لا يستقر لها قرار ، فاليوم هى عند عراف يستطلع من أثناء الرمال سطور القدر المكتوب ، لتتلقفها « ضيعة النخيلات » حيث تزور

جذعا أثيلا له فيما يدعون قدرة نفاذة على درء العقم والإجداب .

وأطاعت الزوجة ما أمرت به ، فعمدت إلى مسمار أنفذته فى صلب الجذع ، واقتطعت من حاشية ثوبها مزقة عقدتها أنشوطة حول المسمار إلى جانب ما يزدحم به الجذع من مسامير مكسوة بالمزق تبدو بها الشجرة كأنها عروس محلاة بألوان من الأكسية والثياب ، ومالت المرأة على غدير تغسل من مائه وجهها سبع مرات ، ثم تغترف منه غرفة تعبها عب الصديان .

وإن تناهى إلى القرية نبأ قتيل لم يواروه بعد ، عجلوا بها إليه تتخطاه مرة بعد مرة قبل أن يسار به إلى مثواه الأخير ، وتفاجأ فى الحين بعد الحين بشيخ وقور عريض اللحية كسيح جيء به إليها لكى يزودها من التمائم والتعاويذ بما يزيل الموانع والمعوقات .

وهكذا دارت عجلة الأيام تضن على الزوجين بالسكينة والصفاء .

وارتحلت « ريحانة » ذات يوم فى صحبة أخيها تمارس تجربة جديدة على مسيرة أيام من قرية « المعاتيق » ، وكان على «مصيلحى» أن يزجى ليلته وحيد الدار ، فلزم الباب يهيء له عشاء يتشاغل به عن ملالة الوحدة ووحشة التفرد والانعزال .

وفيما هو يدبر أمره إذ مثلت أمه حياله عاقدة الجبين تدنى منه خطاها فى تؤدة ومهل .

رباه !... ماذا حملها على أن تزوره فى دجوة الليل ؟

ليس من مألوفها معه أن تجشم نفسها زيارته إلا لخطب يلم ومشكل يتعقد .

وحدق إليها ينظر ، فرآها كأنما هى فى غسق الليل قطعة منه تحمل فى طوايا لبوسها الأسود وخمارها الأغبش أوهام الليل ومفزعات الظلام .

واقترب شبح الأم ، فعقدت البغتة لسانه ، وجمعت أوصاله ، ولكنه تمالك ، وتنحنح يطلق لسانه بالتحية ، فغص حلقه بجملة ترحيب فاترة .

لم تعره المرأة اهتماما ، وتابعت سيرها فى خطاها الزاحفة تلج الدار ، فتحامل الابن يقتلع جرمه وتبعها ، يتغشاهما صمت ، وانغلق الباب ، واحتوتهما قاعة الدار .

وجلست المرأة فى زاوية قاصية تصلح من خمارها وتسوى ما تشعث منها ، مخفية قدميها تحت عودها السامق ، وشغل عنها « مصيلحى » هنيهة بالمصباح المعتم يحرك مداره فتهتز ذبالته متوهجة تمزق وحشة الظلام ، ثم أقبل على أمه بوجهه يتبينها ، فظفر بها فى ركنها مطرقة تتفرس فيه مليا ، وهم يبادرها بالكلام ، فاستوقفته

العجوز بإشارة من يدها ، فذابت الكلمات على طرف لسانه ، ونطقت الأم تهمهم :

ربما تساءلت لماذا جئتك فى غيبة زوجك ؟ . الحق أنى رصدت هذه الفرصة لأطرق دارك وأخلو بك . . . الأمر هين . . . وما أنا مخفية عنك منه شيئا . . . أنا أمك أحب لك السعد والخير .

وتجمع « مصيلحى » يلملم حواشى جلبابه يستمع فى شىء من الفتور والضيق إلى ذلك الحديث المعاد تتخذه أمه دهليزاً كلما أرادت سرد مسألة لها فى نفسها شأن وخطر ، واعتمد رأسه بساعده ينتظر العاصفة وشيكة الهبوب .

— أنت تعلم أن للأمهات منزلة أشاد بها الله فى كتابه العزيز ... لا تنس ذلك يا بنى . . . يا « أبا سويلم »

وانتبه الرجل يرأرىء بعينيه وقلبه يتفزز ، فاستأنفت الأم تقول فى اقتضاب :

بات واجبا عليك أن تكون لك زوج وولد .

ففغر فاه يغمغم فى وجوم :

زوج وولد ؟

فاستأنفت المرأة تبين عن ذات نفسها فتقول :

أمك شارفت نهاية العمر . . . تتمنى أن تكتحل عيناها بمرأى

حفيد لها تهدهده بين ذراعيها وتؤنس به وحشتها . . . أفتريدنى أن أرحل عن هذه الدنيا ولى فيها تلك الأمنية الظمأى ؟ . . . « أبا سويلم » . . . أريد أن أرى « سويلم » قبل أن تحين وفاتى .

وسعلت العجوز سعلة جافة ، وهى تهمهم فى منصرفهـــا عن الدار :

لم يكذب مثل الأجداد : « من لم تنجب فإطعامها حرام » .

كانت الجمل وهى تمرق من فم الأم كأنها نصال تنشب بنياط قلبه فتدميه .

ماذا اقترف فى دنياه لتجعله الأقدار هدفا لذلك التجنى المرير ؟!

وما لتلك العجوز يحلولها أن تغيض هناءة بيته ، وأن تشوب صفاء عيشه ؟

فلترحل عنه ، لتدعه عصفوراً طليقا يغرد على أفنان سعادته لحن الهدوء الاستقرار .

فيم العجلة . . . ؟

ما هو إلا حول تقضى منذ تزوج ، وهل يكفى حول واحد ليأس وقنوط ؟ .

صبر قليل .

ألم تعلمه الأرض التى يزرعها أن يتأنى ؟ .

كم من مرة بذر حبا ضاع فى بطن الحقل ، فلما عاد إلى الأرض يبذر حبا جديداً أنبتت من كل زوج بهيج .

لاضير عليه إن صبر ، ومامن شيء إلا وهو مرهون بقدر .

ولكن ماحيلته مع أمه ، وهى صعبة المراس ، صلبة القناة ، ماتعلقت إرادتها بشيء إلا ألحت فى إنجازه لا يعتاقها أمر ؟

— ٢ —

توارَدت هذه المناظر والصور تلوح لعينى « مصيلحى » وهو جالس على مصطبة الخفارة بباب الدوار ، لا يكاد يفيق من مشاغله وهمومه .

ومالت الشمس للغروب ، فخرج « مصيلحى » من عباءته يتمطى نافضا عنه التخاذل والفتور ، وتلفت يمنة ويسرة يستقبل طلائع الليل الزاحف وراء الأفق ، فما لبث أن صلب عوده النامى يسلم قدميه إلى مداسه قاصداً حافة الغدير .

وهنالك جلس يتطلع إلى صفحة الماء العكر ، ويرشقها فى الفينة بعد الفينة بحصيات ، كما كان يفعل فى فجر صباه كلما حزبته نائبة أو ألم به ضيق .

واستسلم لعادته المألوفة يستجلى الماء وهو يتلقى الحصيات ، فيرتعش فى دوائر تتدرج من ضيق إلى سعة ، كأنما هى رأس غريق

تطفو خصائل شعره على مجرى الغدير . . . فتملكته رجفة ، وتواردت أنفاسه ، وألفى نفسه يندفع صوب الغدير كأنه يبغى تخليص زوجه من مصيرها الموهوم .

وما نشب أن انقلب إلى داره يطرقها فى خطا فساح ، يتفصد منه العرق ، ودخلها كالمصعوق يصيح :

« ريحانة » ... « ريحانة » ... أين أنت ؟ !

فظفر بصوتها المنغم يجيب :

أنا هنا يا « أبا سويلم » ... أهىء لك العشاء .

وبرزت له من مكمنها مياسة فى عودها الرطب ، يتلألأ جبينها من بشاشة ، فما إن أحسها حتى احتواها صدره الراجف يضمها فى صمت ، ويقبلها فى اهتياج .

فسمت إليه بعين ملؤها التساؤل والاستخبار تقول :

مالك ؟ ...

فأجابها مبهور الأنفاس :

لاشىء ... لاشىء .. الحمد لله . . .

وانفلتت المرأة تحضر الطست والإبريق ، على حين انفرد « مصيلحى » بنفسه يستلقى على الحصير ينشد غفوة ورخاوة بال .

وما إن مالت زوجته على قدميه تدلكهما فى رقة وحنو ، حتى

ألقى عليها نظرات مشبوبة يتفحصها ويتمـلاها ، وكأنه ينظر إلى سعادته توشك أن تفر منه ، فأقبل يتشبث بها فى حمية ، ويضمها إليه يغرقها فى فيض من قبلات .

وأوى « مصيلحى » إلى فراشه ، وأسبل جفنيه ، فتملكهما سبات .

وفى مطلع الفجر شوهد الرجل مهرولا إلى زاوية القرية ينشد شيخها « إدريس » ، فأصابه فى المحراب يؤم المصلين وصوته يترنم بآى الذكر الحكيم ، فأقام خلفه ، يؤدى الصلاة خاشع القلب ، مقفل الجفنين ، ضارعا إلى الله ، يسأله الهداية والخلاص .

ولما قضيت الصلاة تقدم « مصيلحى » من الشيخ « إدريس » وهو يتمتم بأذكار وتسابيح ، فأخذ مجلسه بجواره حتى أكمل الشيخ تمتمته ، فهمس فى أذنه بكلمات هزته فى مجلسه ، وأمالت رأسه من طرب وهو يقول :

ومتى كان ؟

— الليلة ... والفجر يلوح .

إنها لرؤيا صادقة . . . رؤيا الفجر لا تكذب . . . قص علىّ ما كان ...

وانطلق لسان « مصيلحى » يبسط حلمه العجيب :

ألفيت نفسى — والحلم لا يكذب عليه — مخطوفاً من بلدى معصوب العينين ، أهبط صحراء يتراءى بساطها المسجدى عن يمين وشمال ، ورميت ببصرى ، فما وقع إلا على فضاء موصول بفضاء ، وفيما أنا أجاهد الريح إذ مادت الأرض وانقلبت أخاديد وبجوات ، وخفت وطأة الزوابع ، فعم الأرض سكون ثقيل ، وإذا بصوت رقيق يناديني ، فتلفت أتبين ، فأبصرت شيخاً عليه بياض باسطاً يده إلىّ ، فأقبلت عليه أصافحه ... فقال لى فى صوت صافى النغم :

لا تخش شيئاً يا «أبا سويلم» . . . عفا الله عنك . . . لا تيأس من رحمة الله . فرج الله قريب ...

ثم اعتنقنى يقلدنى وشاحا أخضر ، وما عتم أن غاب شبحه عنى ، وتضاءلت الأرض تنكمش ، وثارت الزوابع عوداً على بدء ، فاستيقظت من نومى على صوت المؤذن يكبر الله ...

وسكت « مصيلحى » وهو يرتجف .

واهتز شيخ الزاوية يهتف :

أنت رجل مبارك يا «أبوسويلم» . . . أتدرى من كلمك ؟ . . . إنه سيدى « المغاورى » ... أبشر ... أبشر ... وما هذا الوشاح إلا بشارة منه لك بتحقيق أمل عظيم ... الفاتحه لسيدى «المغاورى» رضى الله عنه وأرضاه .

— ٣ —

وفى الظهيرة من غد شهدت محطة « القاهرة » شيخاً ضريراً ضامر العود تأخذ بيده ريفية مليحة يستر وجهها خمار رفاف ، ومعها ريفى قوى العضل ، عريض المنكبين ، عليه سيماء الفتوة ؛ وهم ينقلون خطا هيابة بين جموع الوافدين . وهبطوا الميدان الفسيح فى ملتطم الزحمة يستخبرون ويستدلون .

وماهى إلا أن أقلتهم مركبة تقطع طرقات المدينة المعيدة ، تارة تنفسح وطورا تضيق ، حتى أسلمتهم إلى أطراف المدينة يعلوها جبل الجيوشى أجرد مغبراً ، كأنه عابد فى تنسكه نض عنه لبوس الترف واتشح بمسوح الرهبان .

فتوقفت المركبة ، وسمع صوت الحوذى يهمهم :

هنا ماتنشدون ... لقد وصلنا .

ونزل الجمع من المركبة يرتقون درجا من الحجر أوفى بهم على كهف غائر فى بطن الجبل ، يستكن فيه ضريح ولى الله «المغاورى» وعلى بابه حارس مهيب الطلعة تتهدل فوق صدره لحية شهباء . فتقدم منه الثالوث الريفى ، فأشار إليه يهديه الطريق ، فاندفع الرفقة الثلاثة يقطعون سردابا خاشع الضوء ، تتناثر على جانبيه قبور عليها سكينة الموت وجلال الفناء .

وأوغلوا فى السرداب حتى بلغوا منتهاه حيث مقام ولى الله « المغاورى » ينفح منه عطر زكى .

ومن ثم دخلت « ريحانة » تطوف بالضريح ، وتتمرغ على أديم الأرض من حوله ، كما تصنع رفيقاتها من الزائرات .

ورجعت إلى زوجها ومعه شيخ الزاوية يأخذون طريق العودة ، وملء نفوسهم رضا وتفاؤل وإيمان . . .

وتقول القصة فيما تقول :

إن « أبا سويلم » و « ريحانة » عاشا فى ثبات ونبات ، تحف بهما ذرية من بنين وبنات ! ...

حساء الدجاج

دلف الأستاذ « تيسير » مندوب مجلة « الإنسانية » إلى بهو الاستقبال ، يضرب الهـــواء بمنكبيه العريضين فى خطا فساح ، وساعداه مبسوطان لتحيتى ، تعبر فمه ابتسامة ملق باردة .

مددت له يدى أصافحه وأرحب بمقدمه ، ثم أومأت إلى مقعد وأنا أقول :

شرفتنا ... تفضل بالجلوس يا أستاذ .

فلم يكد يستوى على كرسيه حتى زحمتنى من فمه تحيات بليغة منتقاة اللفظ والعبارة ، بيد أنك تحس من إلقائه إياها أنها أنشودة مكرورة يصدح بها بين يدى مختاراته من الشخصيات ، ملتمسا عندهم مايوشى به مجلته من أخبار وأسرار وأحاديث .

وفيما كان لسانه يتشدق بالعبارات الرنانة ، كانت عينه تنفض أثاث الحجرة يمنة ويسرة ، كأنه يحصى ماحوت من رياش ورسوم وطرف ، ويده تتراخى على المنضدة القريبة منه وتعبث على ظهرها فتتناول العلبة الصدفية لتفتحها تستخرج منها لفافة تبغ ، ومالبث

أن ألقم فمه إياها يجتذب منها الأنفاس فى شغف ولهف .

وأقبل علىّ بوجهه المسنون يقول رزين الصوت :

لعل « مجلة الإنسانية » تروقك . . . فتلك فى استنارة فكره وسلامة ذوقه خير من يقدر ما يبذل فيها من مجهود .

فأجبته مجاملا :

لاشك أنها مثل طيب للتقدم الصحفى . . . شخصيتك ظاهرة فى كل صفحة منها ... عليك يقع العبء الأكبر لاريب .

فتطلع إلىّ وقد بسط صدره وتعالى بهامته مزهوا ، تتراقص على شفتيه الجمل فى تحمس :

وأى عبء ياسيدى ؟ . . . رغبات الجمهور متجددة ، وذوقه ألوان . . من هنا تنشأ الصعاب . ومن هنا أيضاً تكون الصحافة فنا رفيعاً يتطلب قوة الابتكار ، وجدة التفكير ، ورهافة الحس .

— هذه هى الصحافة حقاً ... شد ما تبذل فى سبيل إعـــداد الموضوع الطريف ، واصطياد الخبر اللامع .

وأطرق لحظة يهز قدميه فى اهتياج ، وقال كأنه يناجى نفسه :

حتم علىّ أن أملأ عشر صحائف بين يوم وليلة ، وإلا تعطلت المجلة عن موعدها المعلوم . . . الصحافة جهاد . . جهاد مرير . . . لابد للصحفى أن يعوّل على مقدرته وكفايته . . . لا بد أن يخلق

الموضوعات خلقا . . . الصحفى يختفى وراء أكثر الموضوعات التى تظهر بأسماء الكبراء وغير الكبراء .

وتلاطمت الكلمات وقتاً على شفتى الأستاذ « تيسير » ، ثم انهمر منهما سيل فياض من أسئلة متشابكة يأخذ بعضها برقاب بعض، وإن اختلفت مناحيها فى شئون الحياة ، وهو فى ذلك كالباحث عن هدف يطمئن إليه ، أو لكأنه طائر حبيس لا يفتأ ينقر أسلاك قفصه هنا وهنالك ليفتش عن منفذ يخرج منه .

وما إن عرف من أمرى أنى أعزب لم يسبق لى الزواج ، حتى أزهرت عيناه ، وقلق فى مجلسه ، وطفق يفرك يديه وهو يهمهم :

حسن جداً ... هذا موضوع ... تتشرف « مجلة الإنسانية » فى شخصى الضعيف بأن تسألك: لماذا آثرت العزوبة ؟ وماذا صدف بك عن الزواج ؟

— هذا شأنى الخاص...أحسبته سلعة تطرح فى الأسواق؟... ماذا يعنى قراء مجلتك من أمرى ؟

— سيدى لا يخفى عليه أن العلم يفتقر إلى التطبيقات الاجتماعية، ومنها يستمد غذاءه ونماءه .

— ما للعلم ومالى ؟

— سيدى كائن حى ، ونموذج بشرى . . . له من سعة العقل

وسمو المكانة ما يجعل لتصرفه قيمة ، فهو لا يسلك مسلكا إلا استوحى فيه سداد الرأى ونفاذ البصيرة .

— أتحسب أن حياتنا الشخصية تتخذ فى مجراها هذا الميزان الدقيق ؟

— وهل يجرى المرء تصرفاته عبثا ؟ . . . هناك وجهة نظر .

— المرء مسوق فى حياته الاجتماعية وفق ملابسات ومقتضيات خاصة به ، لا شأن لأحد بها سواه .

— إذا أمسك كل امرىء عن الجهر بالعوامل التى تدفعه إلى سلوك معين ، خسر العلم ، روقف دولاب المعرفة .

— أتنكر أن لكل امرىء حرية شخصية يستأثر بها لنفسه ، تبقى مكنونه فى قلبـــه ، لا يحق أن يجهر بها فى أسواق الفكر ومنازعات الرأى ؟ .

— لا افتئات على الحرية الشخصية إذا لم تكن ثمة أسرار لا يجوز البوح بها ، خشية أن يكون فيها إساءة وتشهير . . . فهل فى الأمر أسرار ؟

— أية أسرار ؟ . . . ليس ثمة أسرار ... كل ما فى الأمر أنى نشأت عزبا فظللت عزبا . . . أليس من الزواج بد ؟

— حتم أن تكون هناك مؤثرات هى السبب فى هذه العزبة . .

ــ أية مؤثرات ؟ . . . لو أردت الزواج لفعلت .

ــ والمرأة ؟

ــ ما للمرأة ؟

ــ والحب ؟

ــ أى حب ؟ . . . لى قطة أعطف عليها ، وآنس بها .

ــ ألم تكن فى حياتك امرأة؟

ــ ماذا تعنى؟

ــ وفترة صباك . . . ألم يكن فيها عاطفة ؟ . . . عاطفة تجلت خلالها أطياف المرأة ، ومغريات الشباب !

— ٢ —

وكانت سكتة يتراءى لى خلالها حديث الناس عن الحب والمرأة والزواج ، ذلك الحديث الدائب المسئوم ، كأنه مضغة لا غنية عنها لإنسان ، وكأنما لا ينجو منها شخص .

فى هذه اللحظة شعرت كأن ساعدين مفتولى العضلات يهبطان بى فى قرار جب ظلماته أطباق على أطباق ، فأفاضت وحشته على نفسى القلق والاضطراب .

لبثت فى هذا الجو المرهوب أعانيه ، حتى صلصل باب ينحسر

عن شمس مصبحة تمزقت حيالها غياهب الغموض ، ومعميات الظنون .

فتجلى لى رحيب مخضوضر ، كسته الطبيعة وشى الربيع .

تحت دوحة فينانة فى أفيائها تربعت أنا و « آمنة » رفيقة صباى وصفية أحلامى ، تجمع بيننا جلسة أنيسة .

كانت بين أسرتينا وشائج ود ، فدعاهم جدى أن يحلوا ضيوفا بضيعتنا بعض وقت ، بغية النزهة والمتعة بالريف ، ولم يسقط جدى من الدعوة « عزيزا » ابن عم « آمنة » ، وهو صبي ماكر شغوب ، لا آنس به ولا هو يأنس بى ، ولكنه يداريني وأداريه .

وضحوة هذا اليوم انتهزت فرصة غيبته فى أطراف الضيعة لبعض الشأن ، فدعوت « آمنة » إلى الخروج معى ، واستسلمنا لتلك الجلسة نستمرىء شهد الحديث فى فيض من نشوة غامضة ، نتحسس كنهها لما نجده بين ضلوعنا من هيبة واضطراب .

كلانا كزهرة يتفتح كمها لتستنشى هناءة الحياة فى بواكير العمر .

أكان هذا أول نغم يصافح السمع من لحن الغرام ؟ .

كل ما دار فى ذلك اليوم من أحاديث ، ليبدو لعينى على صفحة

الوجود ألاقا شفافا ، كأن توالى الأيام لم ينل منه ، وكأن غبار النسيان لم يعف عليه .

ألقت « آمنة » بظهرها إلى جذع الشجرة ،وقد بسطت ساقيها فى رقة واسترخاء ، وتكسر ثوبها على جسدها الريان يمثل مفاتن أنوثتها الناشئة .

وبدت مغضنة الجبين ، على محياها سهوم .

فأقبلت عليها مشبوب النفس أسألها فى تشوف وفضول :

ما بك يا صغيرتى ؟

طالما نعت علىّ أن أخاطبها بذلك النداء ، غير أنى وجدت فيه مرضاة للهو ، ومجلبة للمداعبة ، فانثنيت عليها أقول فى تظرف :

صغيرتى . . . صارحينى .

فاعتدلت فى جلستها جامدة الملامح ، ودمدمت :

إن لم تكف عن هذا الوصف صدفت عنك . وعدت إلى الدار أختنق فيها .

وهمت أن تنصرف ، غير أنى أخذت عليها الطريق ، وقلت :

فيم هذا الغضب ؟ . . أنت ورب السماء قلقة ... ما الخطب ؟

— لا شىء . . . اتركنى وشأنى .

وتلألأت فى مقلتيها دمعة حيرى ، فاهتز كيانى، وصحت مبهور الأنفاس :

أقسمت عليك بحق... بحق صداقتنا ، أن تخبرينى . . . ما بك ؟

فانكمشت فى جلستها ، وتعثرت الكلمات على شفتيها ، فسكتت، فأقبلت عليها مشبوب الوجدان أتوسل وألح ، فهمهمت راعشة النبرات وهى تسرح ببصرها فى الفضاء :

إن صغيرتك يدور فى شأنها حديث خطير يختلط فيه اسمها واسم « عزيز » . . . كان ذلك بين أبى وأمى ... ليلة أمس ، وهما فى مخدعيهما يتسامران .

فغمغمت وأنا عاقد الجبين :

ماذا تعنين ؟ . . . انظرى إلىّ .

واجتذبتها مأخوذ النفس أصعد فيها النظر ، وانبرى صوتى يجلجل غضبا :

هل اتفقا على زواجك ؟

فنكست رأسها ، وتشاغلت بعود تنكث به العشب ، وقالت فى صوت مكتوم:

كادا يتفقان .

ووافقت أنت على أن تتزوجى « عزيزاً » ؟

— أنت تعلم شعورى نحوه ، ورأيى فيه .

وتدفع صوتى قوى الجرس :

يدى هذه حمى لك ، تذود عنك ما تكرهين .

وفى هذه الأثناء سطع فى الجو غبار تجلى عن جواد يسابق راكبه به الريح ، فأومأت أقول والدم يتصاعد إلى وجهى :

هذا ابن عمك راجعاً . . . يحسب نفسه فارس الفوارس ينهب الطريق نهباً .

فأجابتنى فى سخرية :

فلينهب ما يشاء ، وليبتعد عنى ... أشمئز لمرآه . . . ياله من متعجرف سخيف !

— ثق أنك لى وحدى ... ولن يسلبنى إياك أحد .

وأخذت ألوح بيدى فى تهديد ووعيد :

ان تكونى لغيرى ... لأبادرن بخطبتك .

وفى موعد الغداء تحلقنا جميعاً حول المائدة ، وتقدم منا « عبد السلام » وهو شيخ متهدم ، خدم جدى منذ فاتحة شبابه ، فأبقى عليه فى خدمته ترفقاً به ورعاية له .

وتحامل الرجل على قدمين ترتعدان ، وفى يديه وعاء يترجرج فيه حساء دجاج .

ودنا منى يدرج فى خطوات قلقة ، وما كاد يتلمس مقعدى حتى أحسست قطرات ساخنة تتناثر ، وما لبث الوعاء أن سقط على رأسى ، فاندلق منه الحساء كأنه السيل يغرقنى فى فيضه . فنهضت من فورى تذهلنى البغتة ، وتسودنى الحيرة والارتباك ، وأنا أزمزم وأجمجم ، وإذا بطرفى يأخذ «عزيزاً» مقهقهاً يصفق بيديه، وهو يميل على «آمنة» ويغمزها ، فتبادله ضحكات رخيصة ، أشبه بضحكات إبليس لعين .

ووجدتنى أزمزم وأنا أحدجها بنظرات تتوقد :

فيم تضحكين ياصغيرتى؟ ... الأجدر بك أن تبكى .

وانطلقت من الحجرة أرتعد ، يكاد الغيظ يقتلنى ، فاحتوانى مخدعى تنبثق من مقلتى دمعة التياع ، و «آمنة» تتمثل لى شائهة تثير فى نفسى ألوان الزراية والامتهان .

— ٣ —

... وهنا غامت لعينى الشمس المصبحة ، فاختلطت على المشاهد والصور ، وأحسست كأن الساعدين القويين يحملاننى من قرارة الجب ، صاعدين بى إلى مجلس الأستاذ «تيسير» وهو يثرثر بحديثه عن العزوبة ومايختفى وراءها من أسرار ...

أمينة

« سرور أفندى عزب » موظف بهيئة قناة السويس ، لبث فى عمله بها زهاء عشرين حولا . أمضاهن جميعاً فى مَراقب استطلاع السفن ، ينتقل من مرقبة إلى مرقبة ، حتى انتهى به المطاف إلى أولى هذه المراقب على طول الطريق .

مبنى هين على حافة القناة يتألف من حجرات تغص بآلات الرصد المتباينة ، يشمخ فوق ربوة عالية ليشرف منها على بطن القناة ، وقد شقه صراع البحرين الأبيض والأحمر ، فتناثرت منه الأحشاء على ضفتيه فى العراء نهبا للأنواء .

طفق الرجل يعمل موصول الجهد لا تتزاور عينه عن صفحة اليم ، ملقية شباكها أبداً تتصيد الجوارى المنشآت ، وهى تمخر العباب فى مغدى ومراح .

إنها لتشخص على مد البصر منهوكة الأوصال ، مبهورة الأنفاس ، من فرط ما كابدت فى سفراتها من عنت وإرهاق ،

فتتهادى على مهل حذرة الخطا تنشد الهداية والأمان ، فيتلقاها بفيض من إيماءاته وتلويحاته ، يمهد لها سبيل الدعة والاستجمام ، ثم تزول عنه بعد حين ، وهو يشيعها بمثل ما استقبلها به من حفاوة وتعهد وتوجيه ، دون أن يتاح له يوماحظ الظفر بإحداها ينعم على ظهرها بساعة أنس واستمتاع .

ومنذ فجر شبابه ونفسه تنازعه أن يتحدى الأفق العنيد ، ذلك الأفق الذى يرتد عنه بصره وهو حسير ، مقتحماً خطه الدقيق فى جسارة واجتراء ، فينفذ إلى ما وراءه يستشف فى تأملات الأحلام ما غاب عنه من مباهج الدنيا وأسرار الوجود ، فينهل منها مايطمح إلى مشاهدته من عوالم ومرئيات ، كأنما ينهل شهداً معسول المذاق .

تخطى الرجل سنيه طورا بعد طور ، يوثق عزمه على رحيل .

وتمثلت الأعوام العشرون كأنها فنان قضى تلك الحقبة المديدة فى صومعة الزمن ، مقبلا على إزميله ومنحته ، يصوغ من نفس « عزب أفندى » كونا عريضاً توشيه الأزاهر والرياحين ، وتتجلى فيه عرائس حسان تناجيه فى يقظة ومنام ، وتناشده تحقيق الأحلام . وسرعان ماتنفذ بصيرته تنقل قدميه بين المدائن ، وتجتاز به هضاباً وأطواداً يصنفها خياله ، ويشكلها هواه .

لطالما ارتحل إلى القارات الخمس ، يهبط ربوعها ضيفاً كريماً وسائحاً فطناً يجوس خلال مختلف البقاع ، تكتحل عيناه بالثلوج تعمم نواصي الجبال ، وتستمتع نفسه بجمال السهول عليها مروجها الخضر ، وقد ازدانت بجداول يترقرق فيها الماء كأنه اللجين المذاب .

كان الرجل يحي أماسيه فى مرقبته العالية يدبر كلفة السفر ، ومعدات الرحيل ، ولا يفتأ فى شتى مراحل حياته يعمل على تنمية رصيده بجديد من الادخار ، فتقفز الأرقام من سنة إلى سنة قفزات السلحفاة ، حتى ربت وترعرعت تأذن لصاحبها أن يبدأ المطاف .

تتابعت تلك الذكريات كأنها البروق الخواطف تلتمع فى مخيلة « سرور أفندى عزب » عندما دلف يتخطر مزهو الأعطاف يشق الشارع العريض فى طريق أوبته من شركة البواخر ، بعد أن ظفر بتذكرة الخلاص ، واستأصل من نفسه أوجاع الحرمان .

وفزعت يده إلى جيب حلته يتلمس الوديعة ، ليتأكد له أنها تحتل مكانها الأمين من حرزها المكين ،. وتمسحت بتذكرة السفر أنامله ، فافتر ثغره عن ابتسامة متوردة ، وانساب على شفتيه صفير يتمشى فيه حنين ، ثم اعتدل يزرّ غطاء جيبه مبالغاً فى التوثيق والإحكام .

وهرع إلى منضدته فى مشربه المعتاد ، يتبين الخلان ، ليزف إليهم بشراه ، واقتحم المشرب طلق الأسارير ، ووقف يستجلى من فيه ، فلم يظفر بأحد من رفاقه ، نخطا إلى الساقى يلقى إليه بالنبأ العظيم ، وتركه يتمصص الخبر ، واسترخى هو على كرسيه يستنشى نفحات النسيم ، مطلقا العنان لفكره ، يرتع به فى أخيلة وأوهام .

وهرول الخادم يوزع النبأ يمنة ويسرة بين مصدق ومكذب ، وشهدت الحانة فى تلك العشية مولد جواب آفاق من طراز قشيب سوف يقهر البحار ويكتشف الأسرار ، ويلم بما لم يلم به من سبقه ومن سيتعيا أثره من بعده فى عالم الترحل والأسفار من أخبار وألطاف

انبثق يوم السفر ، وياله من يوم بسام المحيا وضاح الجبين .

وأهل « عزب افندى » على عتبة داره فى حلة شوكاء قاتمة الزرقة ، تحاكى فى زيها لبوس النوتى ، وفى يده قبعة بحرية ، بيضاء ، يتوسطها خطافان متقاطعان ، يحتوى عليهما حبل مجدول ، توشيه خيوط رفيعة ناصعة التذهيب ، وقد انتفش شاربه ، والتمع فى عينيه وميض الرضا والانتصار .

ولحق به خادم كهل ينوء بما حمل من حقائب المتاع ، واتخذ طريقه ثقيل الخطا إلى مركبة الخيل ، فأودعها الحقائب ، ووقف بجانبها موقف الحارس الأمين ، ريثما يستقلها سيده إلى المرفأ الكبير .

ولبث «سرور أفندى عزب» غير قليل يتوسط لمة الأقارب والأصدقاء يجاذبهم حديث الوداع بنفس جياشة وفؤاد نشوان..
وبعد هنيهة ثاب إليه الخادم يغمغم له بكلمات ، فما إن وعاها سمعه حتى تطلع إلى ساعته ، وماعتم أن أقبل على الجمع يصافحهم فى عجلة وإسراع ، قائلا : لقد حان وقت الوداع .
ورفع يده بالتحية ، وانتحى صوب مركبة الخيل يرتقيها ، فأدركه صديقه «الحاج عويضة» البدال يعتنقه فى حماس وينثر على وجنتيه القبلات ، ليجتذبه بائع الصحف وينثنى على يمناه يشد عليها ، ليلقفه «الشيخ عفت» قارىء آيات الذكر الحكيم وهو يتمتم برقيته ، ليتداوله أخيرا جمع من الجيرة يسلمون .
فما لبث الخادم أن فرقهم يفسح لسيده طريقه ، فنفذ «سرور أفندى» إلى المركبة يتصدر كومة المتاع ، عليه مسحة الزهو والاعتزاز .
وماهمت المركبة أن تتخلع ، حتى عزفت الحناجر نشيد التوديع :
مع السلامة يا «سرور أفندى» ... مع السلامة ! .
وكرت المركبة تؤم الميناء ، لحوافر جوادها على الأرض الصلبة رنين شجو وحنين ، فاستدار «عزب أفندى» يشيع مثابته

بنظرة وداع حار ، وسما بيده يلوح ، ثم لوى عنقه يلملم نظراته، وأقبل بها على حقائبه يحصيها فى انتباه ، وما إن اطمأن إليها حتى استوى فى جلسته يصلح من هندامه ، ويتعالى بهامته ، يستنشى الهواء الرخو فى زهو وخيلاء ..

وشارف المرسى . فاسترعته السفينة رابضة تتألق تحت وهج الشمس . مشدودة إلى اليابسة بأمراس غلاظ ، ومن مداخنها تتعقد سحائب سود تجارى فى مرقاها الهواء فى مسراه .

خطا الرجل صوب الباخرة يستوعبها فى نظرة خاطفة . ومن ثم ارتقى سلمها يفعم قلبه مسرة وحبور . . وعرج إلى سطحها وكأنه فى حلم ..

وطفق يجتاب أرجاءها يتعرفها فى حماسة الأطفال .

ما للساعة تتباطأ؟...

مالهم لا يفكون وثاق الأسير !...

ما للمراجل الغالية لاتبعث قرقرتها أذانا بالمسير ؟

أما آن لبنت اليم أن تأخذ طريقها فى البحر مستعلية على الموج الدفاق ، تشقه بمقدمها المسنون كأنما هو سكين مشحوذة ، تغوص إلى الأعماق ، فتبقر أحشاءه فى يسر دون عناء . وهى منطلقة لاتهيب هذا الخضم المؤاج وما يكتنفه من مخاطر وأهوال .

وبغأة سرت فى الباخرة سارية من الحركة والنشاط ،وانبعث النواتى يحثون الخطا فى همة ومضاء ، وصلصلت أجراس ، وجلجل صوت حازم اللهجة يصدر آخر التعليمات .

فاهتاج الرجل أيما اهتياج ، وتواثبت دقات قلبه تهزه هزا عنيفا .

فاستند إلى سور الباخرة يسبقها بنظراته إلى الأفق البعيد .

لا بد أنهم سائرون .

عليه أن يدون مذكراته عما يجرى الساعة أمامه من المجالى والمرئيات .

هاكم النواتى يعملون .

هاكم الباخرة على وشك الإقلاع .

ما أروعه بدءا ما وراءه من متع وملذات .

إنه يحرص على ألا يفوته منها شيء دق أوجل ، إلا أحصاه فى فطنة وتبصر .

ليحث خطاه ليتصفح كتاب سفره منذ سطوره الأولى ...

وانتقل الرجل يطوف بأرجاء الباخرة فى نشطة وحماس ، يتطلع ويستجمع . كشأن ولوع بالطرف والألطاف ، يتلقط منها كل ما تصل إليه يداه ، دون أن تتسرب منها سارية إلا كان له معها جولة وشأن ..

وفى فورة اهتياجه وتنقله ، عثرت قدمه بحزمة من حبال السفينة المتجمعة فى ليات وعقد ، وكأنها الأفاعى تتحوى مختلفة الشكول والألوان .

فاختل توازنه ، واضطرب يتهاوى على أديم الباخرة يئن . كأنما هو جذع ضخم يعمل فيه الفأس ، فلا يتمالك أن ينقض ، غير قادر على تماسك وثبات .

وطفق الرجل يلم شتاته ، ويستقيل من عثرته . غير أنه شعر بجسده موثقا إلى الأرض لا يقدر على فكاك .

هذه قدمه قد التوت عليه تفت فيها الصدمة ، وكأنما فقدت الحس .

لم يملك الرجل إلا أن يصيح طالبا النجدة ، نخفت إليه السواعد تحمله وتتبين أمره .

وما مر إلا لحظات حتى كان الرجل ممدودا على محفة تتهادى به لتجليه عن الباخرة ، وهو يبعث إلى السفينة بنظرات ذاهلة ، وعلى رصيف البحر عجلت إليه سيارة الإسعاف تحتويه .

فاختلطت فى سمعه صلصلة أجراس لم يدر أكانت صفير الباخرة تودع الشاطىء ، أم كانت أجراس سيارة الإسعاف تشق به الطريق إلى دار العلاج .

وظفر المساء بـ « سرور أفندى عزب » وقد أضافه سرير مريض فى المستشفى الكبير الذى يرقد فيه ، وأمامه قدمة عليها الجبائر ، وقد تطاول نظره من النافذة يرنو فى تحسر إلى ملتطم العباب ، يحاول عبثا أن يستوقف إحدى الموجات لتحمله إلى عالم أحلامه وراء الأفق العنيد ، وقد تحيرت فى مقلتيه دمعتان ...

متاما

منذ ساعة ... وعيناه ترتصدان لها يحاول أن يسترعى ناظرها إليه . منذ خطا يغزو ملهاه الليلى المألوف ، على أرباض القاهرة .

تراه العين ينفض قامته على رؤوس النظارة حوله ، يستجلى من فتنته من الأوانس حين وقف يتطلع إلى حلبة الرقص ، فلم يقو أن يرد عنها طرفه ، وهى فى بهرة الرقص ، تنساب منقلة خطاها على إيقاع النغم ، مرحة الأعطاف ، يزهر على فمها ابتسام، ويومض طرفها إيماض الأنس والابتهاج ، وقوامها اللدن يلين فى فى ساعد رفيقها بالغ الطوع والاستسلام ، مسايرة ما تشدو به الموسيقى من أنغام صاخبة كأنما هى آتية من الأحراج .

وإذا به يسمع صوتاً متخشعاً يناديه من خلف ظهره ، فالتفت يتبين ، فزحمه ساقى المشرب بوجهه المقبب ، وشاربه المنتفش ، وفمه يتثاءب عن رطانة إغريقية :

الأستاذ شلبى يدعوك ... على كأس من شراب فى إلحاح .

وأومأ حيث يستمتع الصديق بجلسة رخية ضاحك الأسارير،

تؤنسه صويحبات من غانيـــات الملهى ، ثم أردف الساقى غامزا بلحظة :

إنه يتعجلك .

فأجابه يبرطم :

خانتك فطنتك عن مشاغلى الآن . اغرب عنى .

وأشار إلى الساقى بظهر يده يقصيه .

واستأنف يراعى بهرة الرقص فى تطلع وحماس ...

وما أسرع أن أمسكت موسيقى « الجاز » عن نباحها العنيف ، فدوى فى القاعـة تصفيق ، وانفض المتراقصون يسودهم اختلاط .

وفى تلك الفينة أفلتت فاتنة المرقص عن العيون ، كأنها القمر توارى وراء الغيوم ...

وبث الشاب المفتون نظراته فى جنبـــات الملهى يتلصص ويتكشف بالغ الاهتمام ، وبعد لأى ظفر بها فى ركن قصى ، وفى يدها منديل رفاف تلمس به جبينها الوضاح ، لتميط عنه ما يتلألأ عليه من قطرات العرق يلثمه كما يلثم الندى جبين الوردة الألاق .

والتمس إليها الطريق وثاب الخطو ، فصادفته مرآة تمهل عندها يتوسم مثاله ، ثم مد يده إلى زهرية عن كثب ، فاجتنى منها وردة رشيقة ناطها بعروة سترته ، وتابع سيره صوب أنشودة الفؤاد ،

وملء نفسه فورة واعتزام ... ليهجمن عليها ، وليستأثرن بها ، وليردن عنها زحف الطامعين أن يكون لهم من رقصها نصيب .

دانا ها .

فزم قدميه فى لباقةوتأنق ، وانحنى فى كياسة وتظرف، وفاتحها يقول فى تودد :

هل تسمح لى الآنسة بأن تكون لى معها الرقصة القادمة ؟

وأجابته فى ابتسامة عريضة مشرقة :

يسرنى .

وطوت منديلها الرفاف تودعه حقيبتها .

وتابع قوله فى تلطف :

هل لى أن أتشرف بتقديم نفسى ؟

وقبل أن يواتيه جواب ، قال :

« عزت جودت » .

— لى الشرف... «ليلى الجميل» .

— اسم على مسمى... جميلة الليالى وزهرة السامر .

ووقف يمتعها بألوان من الطرائف والنكات ، ريثما تتعطف على أسماعها ألحان الموسيقى تنهى فترة الانتظار .

وكانت فاتنته قد أنست بحديثه ، واستطابت مفاكهاته ،

فانبعثت ضحكاتها صافية الرنين .

وعزفت الموسيقى يدوى نباحها المصطخب ، وعمرت بهرة المرقص بالقصاد ، فتهادت إليها الفاتنة وصاحبها يصيبان حظهما من متعة التراقص فى نشوة وابتهاج .

أرسل الظافر المنتصر نظرة الزهو يتفرس بها فى الوجوه .

ثم جنح إلى رفيقته يسر إليها بضع كلمات أحالت أنظارها إلى أرجاء الملهى تستطلع :

من تقصد ؟

— هـذه السيدة البادنة الشمطاء ... إنها لا ريب من سلالة الأدغال .

— هذه ... ؟

— بل تلك التى تزحم المائدة المستديرة .

— أية مائدة ؟

— تطلعى يمنة .

— أيقنت ... تلك التى ترتدى الثوب المعصفر ، وتسدل على منكبيها شملة خضراء ؟ ...

ونظر يتبين :

لا ... لا ... ليست هذه .

وتابع قوله يرشدها مستعينا بإشارات رفيقة :

ذلك هو الساقى يقف على مائدتها الآن . . . تبينى . . . إنها ما فتئت ترقبنا بنظرات حداد كأنها بومة تنذر بالشر .

واسترسل فى تعداد معايبها يستهزىء

واختنقت الأنغام ...

وهب إعصار من تصفيق ...

وماج المتراقصون بعضهم فى بعض ، فتسللت الفاتنة وصاحبها يشقان طريقهما بين الزحام ، وطفقا يجوسان خلال الموائد فى ليات تلو ليات .

فما إن جاز بالمائدة التى وقف عندها الساقى منذ لحظات ، حتى تباطأت « ليلى » تقول فى غير مبالاة :

ماما ... أقدم لك الأستاذ « عزت » .

ثم مالت إليه تقول :

أستاذ « عزت » ... أقدم لك والدتى .

وأحس الفتى بالأرض تميد من تحته ، وبأوصاله يمشى فيها خمود .

ومدت له « ماما » كفها تصافحه ، فانثنى يودعها قبلة الإجلال .

فهمت « ماما » أن تدعوه إلى جلوس ، فلم يمهلها ، وتعثر

لسانه فى تأتأة عجفاء يعتذر ، وألقى قدميه تسوقانه إلى فرار .

وشيعته الأم بنظرات كاشفة ، وهى تقول لابنتها :

خجول ... ظريف ... ليته جلس ... لماذا تركته ينصرف ؟

صدرى انشرح له ... لماذا تهينينى ؟ ... يجب ألا يفوتنا .

وتمتم لسانها يسأل الله أن يهيىء لابنتها زوجا من ذلك الطراز .

وانفتلت « ليلى » واقفة يتوضح على محياها سيماء التغيظ والنفور ، وهى تجمجم :

ماما . . . رجائى أن تكفى عن هذا الهراء . . . بعدا له من زوج تقبله فتاة !

— ماذا يعيبه ؟ مهذب .. شباب ... خلاب .

وبسطت كفيها ترفع إلى السماء أمنية الأمهات للبنات .

وضجت الموسيقى تنوح ...

فكتمت أنفاس الأمنية الغالية ، وطوتها فى أنغامها اللاهية تحول بينها وبين أبواب السماء .

الذبابة

تربع « الشيخ يعقوب المغربى » يحتل مكانه من المحراب فى مسجد « السنجق » بمدينة « بغداد » ، تتسامق على فوديه عمامة مهندمة الوضع متسقة الطيات ، أما لحيته فإنها تشعثت مخفية بجامع الوجه ، إلا عينين ناعستين يترسل منهما وميض التقى والورع ، وما فتىء فمه تحت وطأة شاربه الثقيل ينفث جملا مبهمة هى تمتمات المسبح بحمد الله .

وتحلق حوله نفر من أتباعه جاءوا يسعون فى طلب حكمة بالغة يقولها ، أو حكم فى الدين يهدى إلى رشد وسداد ، أو دعوة صالحة تتفتح لها أبواب السماء .

وشخصت الأبصار ترمق الشيخ الجليل فى مجلسه المهيب ، وقد تجلت على أساريره علائم الإيمان العميق ، وبعد هنيهة تدفع صوته قوى الجرس ينشد مواعظه ، مفصحا عن أسرار الخلق بعبارة حلوة ومنطق سليم لا يخلو من نكتة مليحة ، مؤمناً بأنه

ما من شيء فطر إلا لعلة ، وما من موجود إلا لغاية .

فلا يلبث بيانه أن يلمس شغاف الأفئدة ، فتتمايل الرؤوس من تمجيد وإكبار ، وتسترخي الجفون من توقير وإعظام .

وتابع الشيخ حديثه يلقي إلى الأسماع بالحكمة تلو الحكمة ، يتطاول تارة ويتقاصر طورا ، حتى اختتم درسه بين التهلل والارتياح .

وما عتم أن زايل المسجد في نفر من خاصته وأتباعه ، ينيب إلى داره ، تحف به سماحة وصفاء .

ودلف الجمع في ليات الطريق ، وهم يقلبون الأحاديث ، حتى وافوا دار الإمام . فوقف الشيخ على عتبة الباب ، ثم اعتدل يلقي على الجمع تحية الوداع .

وهم الشيخ أن يلج ، وما إن خطا الخطوة الأولى في سبيله ، حتى تهافتت عليه ذبابة اهتزلها وجهه ، فذبها بيمينه وهو يتأفف ، فتطايرت تستقبل الفضاء في رقصات مضطربة تثرثر بغنـــان موصول .

وشق السكون صوت متخشع يستوقف الشيخ على استحياء يسأل :

مولانا أطال الله بقاءه يرى ما نلقى من عنت الذباب ، يعكر

صفونا فى تبجح ، ويزعج راحتنا فى توقح ، ولا يفتأ يخرجنا من حلمنا بطنينه البغيض ورقصه المحموم . . . فما علة خلقه ؟ أفادكم الله وأبقاكم هاديا وسراجا منيرا !

أطرق الإمام قبل أن يجيب ، وأخذ لحيته بقبضة يده ، وألقى على مريده نظرة حدب وملاطفة ، وهو يبتسم ابتسامة إشفاق ، ثم مد يده إليه يربت كتفه وهو يهمهم :

لهذا يا بنى حديث موعدنا به المجلس القادم . . . انتظر نبلغك الخبر اليقين ، ونشفى غلتك من مشكلة حيرت الأقطاب ودوخت الأحبار . . . هدانا الله ووقانا الزلل والشطط .

وفى غد استفتح الإمام حديثه فى الحلقة يقول :

سألنى أخ لكم فى شأن الذباب : لم خلق على هذا النحو ، خصيا للإنسان ، يشوب طمأنينته ، ويثير حنقه ؟ . . وإليكم من أمره حديثا عجبا .

زعموا أنه فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان ، لم يكن يسكن الفضاء إلا نفر من شعوب رحل ، تضنيهم أوصاب التنقل والأسفار ، وتحف بهم المكاره والأخطار ، بين صحراء عطشى مضللة ، وأنهـــار مزبدة ثائرة ، وثلوج متيبسة ، وغابات مغلقة تتقاضى على طريق الأمان أرباحا باهظة من أنفس ومؤن .

وكان مما حدث أن استقر المقام بإحدى هذه القبائل فى بقعة من بسيط الأرض بها ماء وخضرة ، فركن إليها القوم يصيبون فيها خفض العيش ونعيم الحياة .

وعشية أقبل كبير القبيلة فى لمة من جنده وأصفيائه يتفاوضون فى أمر الرعية ، ويتدبرون من شئونها ما يفتقر إلى تدبير ، وأهل الخيام من حولهم هجوع .

وفيما هم سائرون أبصروا عن كثب منهم شبحين فى شجار ، فأمسك كبير القبيلة عن السير يستطلع الأمر ، وفى أعقابه شخص الجمع يتبينون خبيئة ما يدور فى جنح الليل من ضغائن وأحقاد .

وسرعان ما أبصروا ظهر امرأة تتراجع من فرجة الخيمة مجنحة الذراعين منتشعثة الشعر يعلو صوتها الأجش فى ثورة عاتية ، وهى تسوق القول فى خيلاء وجبروت :

قاتلك الله من مبذر متلاف . . . بالأمس تصدقت بما لدينا من زاد ومؤنة على طارىء ملحاح أشـــد منك قوة وأقدر على كسب . . . واليوم أنفقت عن سعة ما ادخرت من لبن وزبد على امرأة لعوب . . . أمرضاة ربك ابتغيت فيما قدمت أم مست المرأة بألاعيبها من قلبك الشغاف ؟ ... لقد طمحت عيناك إلى ما وراء بيتك وأهلك لا محالة . . . سأبلغ كبيرنا أمرك ليتخذ فى شأنك

ما يتخذ من عقاب .

واعتدلت المرأة تولى الخيمة ظهرها ، وأقبلت على الطريق تقطعه فى تسخط وضجر .

وأهل من أحشاء الخيمة رجل فى ضحى العمر طلى الوجه مبسوط الألواح ، تتوضح فيه سكينة النفس ، وفى عينيه توسل وضراعة ، ينظر إلى تلك المرأة المتنمرة وهى فى منصرفها تدب على الثرى دبيب التذمر والاستياء .

وصاح بها مفصحا عن مطلبه ، ملحفا فى الرجاء والاستعطاف .

فاضطربت المرأة واستدارت تقذفه فى أنفة واستعلاء بقولها:

لا عود لى . . . فلتبق وحدك يا قرين السوء .

وتابعت سيرها تفسح الخطا .

وذبل الرجل فى وقفته ، وما عتم أن ترك نفسه لفجوة الخيمة تبتلعه ، واستلقى على أديم الأرض يضرب شوطا فى عالم الأوهام، فألفى حياته تجثم على صدره أمواجا باغتها الجمود تخنق منه الأنفاس، فقام ينفض نفسه وقد تملكه خوف وقنوط ، ولاذ بركن من الخيمة يتجمع فيه مغلوبا على أمره ، يستبد به الوسواس .فتخايلت له صور من حياته طالما نغصت عليه عيشه وكدرت عليه الحياة .

إن هو انبسط ينشد ساعةدعة قامت امرأته إلى موضع الرأس من فراشه تندب حظها الأنحس الذى ربطها بتلك العجلة الكسول، فتنعى عليه صمته واتزانه ، كأنها ثكلى تجثم على فوهة قبر ندى يحتوى على رفات .

وإن هو جلس ليأكل أفسدت عليه لذة المبادأة ، تصرف يده إلى لون تختاره فى الجاجة ، ولا تفتأ تحاصره حتى يذعن مضطرا لأمرها . فإن أصاب لقيمات لاحقته بسائر الأصناف حينا تأمره وحينا تنهاه ، ولا تزال به حتى يضيق ذرعا فيصدف عن المائدة ، لا عن شبع وامتلاء ، بل عن ضجر وملال .

وإن تشاغل عنها شغبت عليه مطالبة إياه أن يكف عن تأملاته ، فإن لم يستجب لقيته محمومة تطلق صوتها تنشد الأناشيد معكرة عليه صفاء المجلس الأنيس .

والويل له إن هو أبدى رأيا أو ناقش مسألة ، ترفع عقيرتها بالمناقضة تفحمه فى ذلاقة لسان وسفاهة قول .

على هذا النحو سار الرجل فى حياته يودع أمسيته ويستقبل نهاره ، خوار العزم ، سليب الإرادة ، كتلك السفينة التى تتلاعب بها الرياح ، فلا تحسن تصريف أمرها ، وما هى إلا أن تعبث بها غوارب الأمواج من كل صوب .

وما أصبح الغد حتى كان كبير القبيلة على عرشه فى ساحة العـدل الكبرى متفيئا ظل دوحة مورقة ، وقد ارتدى لبوسه الحربى يتمنطق بعلائق سيفه ، وهو شارة الإمرة ورمز الملك ، مسرحا بصره فى جموع الشاكين وأصحاب الظلامات .

وبإشارة من الأمير دوى فى الحلقة صوت جهورى يصيح :

نظموا جموعكم ، وسووا صفوفكم ، وتقدموا واحداً تلو الآخر .

وهاج الجمع وماج ، واستطاع الأشداء منهم أن يتصدروا الحشد ، ثم اختلطت أصواتهم تجأر بالشكوى .

وصرخ الأمين محتدا يهدد :

إن لم تأخذوا أنفسكم بالنظام فلن يستمع كبيرنا لأحد منكم... صمتا . . . صمتا . . . لكل منكم وقت معلوم ، يعرض على أميرنا شكايته .. ويتكلم بما يريد .

وخفتت الأصوات تستجيب لنداء الأمين ، وساد سكون .

وأومأ كبير القبيلة إلى أمينه يستدنيه ، فسعى الرجل إلى سيده بضع خطوات ينحنى أمامه انحناءة التجلة والإعظام ، فأسر الكبير إليه كلمات ما إن وعاها حتى تراجع متطامن الهامة ، ثم صلب عوده يعتدل ، منقلا بصره فى الجمع ، وبعد هنيهة أشار إلى

امرأة يقول لها فى لهجة الآمر :

اقتربى ... نعم ... أنت .

واضطرب الناس ، وشقت المرأة سبيلها على استحياء حذرة الخطو ، ولما بلغت بهرة الساحة أمسكت عن السير وهى تقلب فى الناس نظرها من طرف خفى ، والناس من دونها يرمقونها فى تطلع وفضول .

ودفعها الأمين صوب كبير القبيلة ، فدرجت تنقل قدميها فى محاذرة واحتراس بادية التخاذل والتهيب ، وإذ دانت عرش السيد المطاع ثبتت فى وقفتها ناكسة الرأس ، لا ينطلق لسانها بشىء .

وتنحنح الكبير موجهاً إليها القول يسأل :

ما شكايتك أيتها المرأة ؟.. أمس سمعنا منك نثارا من كلام ... ابسطى شكاتك وقولى الحق ... ولا شىء غير الحق ... وإلا نزلت بك لعنتنا فتنالين إن كذبت أسوأ عقاب . . . وأمرنا حاجبنا بتنفيذ ما نقضى به من نكال .

وتلعثمت المرأة ، وسادها ارتباك .

— تكلمى ... ليس لدينا وقت .

فتلاطمت الكلمات على شفتيها ، ثم قالت فى مسكنة وتخاضع :

سيدى الرئيس ، لقد بلتنى الأقدار برجل ما خلق مثله فى الناس ...

إن تفننت له فى طعام لم يعجبه ، وإن توددت إليه فى نوم تناءى عنى ، وإن أنا قلت له قولا حسناً وكلمة معروف جازانى عليها بشتم وسباب .

وتعالت همهمات الناس تظاهر المرأة على زوجها ، ذلك الزوج المتجبر العنيد ، فنظرت إليهم تسكتهم ، وقد تنمرت منها القسمات . ورفعت عقيرتها جياشة النفس :

ليس هذا كل ما فى الأمر .. لقد تصدق الرجل بالزاد والمؤنة تاركا بيته قاعاً صفصفا . . . والأمرّ من ذلك والأدهى أن عينه طمحت إلى ما وراء خبائه . . . أيرضيكم ذلك ؟ . . . أتودون أن تسمعوا وتعوا فوق هذا من شأن ذلك العشير الشغوب ؟ حسبكم ما قلت !... ماذا أقول ...؟ إنه لم يعبأ بما للقبيلة من عرف وناموس فكأنه شيطان مريد . . . منذ فجر حياتى معه وأنا أتجرع منه المهانة والمذلة والإصغار ... إليكم أمرى ... وعند كبيرنا القضاء العادل الحكيم .

وصك الأسماع صوت يرعد ، إنه الزوج يصيح :

شد ما أنت خداعة كذوب ... تجنيت علىّ ... رميتنى من التهم بما أنا منه براء ...

ودارت المرأة على عقبيها تواجه القوم بعين ينهل منها الدمع ، وهى تصرخ :

أتسمعون ؟ ... إنه يجرؤ على أن يكذبنى .

ودوت فى الأرجاء عاصفة استنكار من بين الصفوف ، تأخذ على الرجل سبيله فى مغالبة خصمه والدفاع عن نفسه .

وهنا قرع سيد القبيلة الأرض بصولجانه ، فإذا الناس سكوت كأنما أخذتهم الصاعقة ، وشرع الأمير يوجه إلى الزوج حديثه قائلا له :

إذا كان لديك من حجة تدرأ بها التهمة عنك فسق إلينا حجتك ... هات ماعندك ... إننا نسمع لك .

وطوف الرجل بنظراته فى الجمع الزاخر ، فألفى الناس يشرعون إليه عيوناً تتوقد من حفيظة وغضب ، كأنما هم يطالبونه بثأر ، فعقدت البغتة لسانه ، ولم يحر من جواب ..

ورعد صوت الكبير يقول :

فيم صمتك ... أمقر أنت بما رميت به من ذنوب ؟

فهز الرجل رأسه فى قنوط واغتمام يهمهم :

وحق الإله إنى برىء ... وحق الرب إنك لم تسمع من زوجتى غير بهتان من القول وزور .

وأخيراً نطق الكبير بقول فصل فى رزانة واتئاد :

من كانت هذه صفاته فالجزاء الأوحد له هو الجلد . . . حسبه

هذه المرة مائة سوط ... على أميننا تنفيذ حكمنا هذا .

وسيق الرجل ليأخــذ جزاء تجبره على الزوجة الصبور ، واستخفافه بما للقبيلة من عرف وناموس ، والحشود يتصايحون تصايح الاستحسان .

واعتدل الأمير ينظر فيما لديه من شكايات .

إن كان قانون البشر لم ينصر الرجل على أمره ، فليتجه إلى أبواب السماء يطرقها لعله واجد عندها فرجا من كربته ، وإنصافاً له من ظلم مبين .

وفى الليلة السابعة من لياليه المباركة شوهد الرجل يتهادى إلى المعبد الكبير محملا بزاد ومؤن ، وعكف عشيته يقدم القرابين إلى الإله الأعظم ، ويحرق أصناف البخور ، مصلياً بقلب صاف وعين خاشعة ، حتى غشيه نعاس .

فانبلجت له طاقة من نور ، وانشقت الحجب عن طيف سماوى يطل عليه بشعره الأشيب ولحيته الكثة ونظراته الثاقبة ، يحف به لمة من الأشياع والأتباع ، يرتلون أناشيد التجلة والتوقير .

وصلصل صوت الطيف السماوى يرعد كالبرق ، وخرجت كلماته كأنها الجنادل الصم ينادى :

يا ابن الأرض تيقظ ... إن الساعة ليست بساعة نوم .

فارتعد الرجل يفيق ، وقد أشرع أنظاره يأخذها هـذا التألق والبهاء ، متسمعاً إلى الهاتف فى تخشع واضطراب :

لقد عرفنا صلواتك ، وأصبنا حظنا من قرابينك ، وقررنا أن نعير شكواك اهتمامنا ...تمن ماتتمنى... تمن ما يجيش فى نفسك ...

وسجد الرجل يسرد شكواه ، رافعاً أمانيه يتمتم :

تعلمون يا أهل السماء ما فى نفسى ولا أعلم ما فى أنفسكم . . . اهدونى طريق الصلاح . . . أفتونى فى أمرى . . . أذيقونى طعم الراحة والهدوء . وأريحوا قلبى من امرأتى الشغوب .

وارتجت أرجاء المعبد بالصوت الراعد يصيح :

مطلبك مجاب ... وستتحقق لك الأمانى والدعوات .

وبينما الرجل فى سجدته إذ احتجب النور ، وتوارت عن عينه الأشباح المقدسة ، وعاوده النعاس .

وعندما أسفر الصباح يلوح ، ذهل الرجل عما كان بينه وبين الأطياف السماوية من حديث ، فقام يتمطى صادفاً عن المعبد ، وسلك سبيله إلى خيمته ، ناكس الرأس ، يستغرق فى تفكير .

وجاز فى طريقه بعراف القبيلة ، متجمعاً فى جلسته ، يسرح البصر فى الفضاء ، وقد انخرط فى صمت .

فرفع الرجل رأسه يلقى على سمع العراف ما يليق بمقامه من تحية وإكبار :

السلام على عرافنا الأعظم .

فشق الشيخ سكوته ، وأرسل إليه تحية ندية :

السلام على ابننا ... حبيب الإله .

وكان من عادات العراف أنه لا يرد السلام على أحد إلا إذا كان عنده من شأن المسلم عليه نبأ وشيك الوقوع .

فما كاد الرجل يسمع رد التحية ، حتى أيقن أن ثمة أمراً جللا يخبؤه له صدر العراف ، فأقبل على مستودع الأسرار يستل منه النبأ الكمين :

ما وراء تحية عرافنا الأعظم... أخطب واقع ؟...

فشردت نظرات الشيخ ، وبرقت على شفتيه هذه الكلمات :

ويل للظالم من ظلمه ... وحش الفلاة له بمرصد ... يسعى إلى حتفه برغم أنفه !

وجعل العراف ينتفض وهو يردد قوله في صوت يشبه الزئير ، فتردد الغابة هديره المخيف كأنه الصواعق تصطك بها الأسماع ، فتقشعر لها الأبدان وتنخلع لها القلوب من خشية وخوف .

فبارحه الرجل ، وذهنه مقسم بين التصورات والأوهام .

ولما رجع إلى حيه ابتدره الناس ينعون إليه زوجه ... لقد تناهبت السباع جسدها حين قدمت الغدير تستقى ، فلم يبق لها من أثر .

وتواردت الأيام تدور..

وشعر الرجل بادىء أمره بالسعادة تغمره فى وحدته ، واستنشى نسيم الحرية والهدوء ، غير أن الإنسان جبل ألوفا يتطلع إلى المعاشرة ويهفو إلى المؤانسة ، وسرعان ما ضاق الرجل بتفرده ونازعه قلبه إلى أليف يصافيه ، فانطلق من فوره يتنقل فى أنحاء الحى يخطب بديلا من زوجه الراحلة ، وما عتم أن أصاب بغيته فى صبية مليحة أوقدت نار خبائه ، واستوت على بيته تمتعه بشبابها النضر ، وتنادمه بحلو الحديث ، فأضحى عيشه باسما وأيامه متوردة .

وساعة أم الرجل مناخ الإبل يقدم لها الكلأ والماء ، وبينما هو منهمك فى عمله تراءت له فى أفق سمائه حشرة سوداء لها غنان مترسل ورقصات محمومة .

واشرأب يتأمل ، فانقضت من عليائها تحط على يده ، فصرفها مرة ، فارتفعت إلى وجهه تلسعه ، وطفقت تتنقل من جبهته ، إلى حاجبه ، إلى أنفه ، إلى فمه ، إلى عينيه .

فذبّها عنه مرات ، فكانت تنأى عنه تخاتله ، وما تلبث أن تنقض عليه تؤذيه .

فتطلع إليها فى حنق ، وهو يغمغم :

أف لك ... سأقتلك إن لم تخلى سبيلى ، وترحلى عنى .

وأزمع أن يهوى عليها بيده فيودى بها ، ورفع كفه بكل ما فيه من قوة ، فتباعدت الحشرة عنه ، ووقعت اللطمة على صدغه أشد ما تكون ...

ورمق الحشرة وهى تتراقص فى الفضاء ، وهمهم :

ما شأنك بى يا حشرة السوء ! ... يا لنكبتى هذا الصباح !

وقفل الرجل راجعا إلى بيته ، وكان الغداء مهيأ له ، فانصرف إلى ماقدم إليه يصيب منه ، وإذا بهذا العدو الأسود يعاوده بالأذية والشر ... تلك هى الحشرة الملعونة تحاوره وتختله لا تنفك عنه !

فاربد وجه الرجل ، وغمغم :

أى شيطان حل فيك أيتها الحشرة الشغوب ؟!

وسرعان ما حطت على أذنه ، وقد سمع الرجل خلال غنائها حديثا عجبا :

لقد أجابتك السماء إلى سؤالك ، فاقتصت منى ، وعاقبتنى على

سوء صنيعى ، فسختنى ذبابة لها ما كان لى من شراسة وضيق... لن أريحك يا رجل ... ولن أقدر على فراقك ... ولن أتركك لامرأة غيرى تنعم بالرفاهة والاطمئنان .

فدفعها الرجل بظهر يده وهو يستعيذ ، فحلقت فى الأجواء نشوى انحط عليه تلسعه مرة بعد مرة . ثم قالت له تودعه :

سأزورك كل يوم... بل فى كل ثانية من نهار أو ليل... أنت لى... أنت تفتقر إلى... سأكون لك كما أنت لى... سأقاسمك الحياة على مر الأزمان وكر الحقب ... سألاحقك ما دامت على الأرض حياة !

وسكت الشيخ عن الكلام ، وقد أفاق من جولته فى دولة الذباب ، وعلى فمه تتخايل بسمة استخفاف عريضة .

فغمغم صاحب السؤال ، وقد ارتسمت على وجه شارة الدهشة والحيرة :

أكذلك خلقت الذبابة ؟ ... اللهم رحماك !

وتهامس فى أعقابه الجمع يقولون :

اللهم اكفنا شر الذباب !

وزايل الشيخ مكانه من مسجد «السنجق» بمدينة «بغداد» ، وقد

استنار وجهه من بشر وارتياح ! غير أنه عندما اجتاز باب المسجد الكبير حطت على لحيته ذبابة تعابث شعراته كأنها تناقشه الحساب، وتنكر عليه أن يرد خلقها إلى تلك القصة التي أفضى بها إلى الناس... قصة المرأة الشخوب !

فذبّها بيمينه ، وقد اقشعر وجهه من تأنف واستياء !.

حنين

جلس الزوجان «عزيز» و «عزيزة» حــــول مائدة الطعام متقابلين ، يصيبان فطورهما ، كل منهمك فيما يشغله ، فالزوج منصرف إلى جريدته يتفحصها ، والزوجة معنية بقدح الشاى تترعه ، وقد شملهما صمت سابغ ، امتد يضرب رواقه فى حنايا الشقة التى يسكنانها ، بأعلى طبقة من إحدى الشواهق ، فى صميم القاهرة .

وما شرع «عزيز» يتبلع بمضغة من طعام ، حتى أشعل لفافة تبغ ، انسرح يدخنها فى استمراء ولذة ، فانبرت له زوجته تصيح حازمة اللهجة :

لكم نهيتك عن التدخين حتى تتم فطورك وتخلص منه ... ؟ التدخين على هذه الصورة مضر بك .

ولكن الزوج أبى أن يستمع ، وقلب صفحة الجريدة لا ينبس ، فاحتدت «عزيزة» تستوضح :

ألم تصغ إلى ... ؟ فيم أنت تائه هذا الصباح ؟

ورفع « عزيز » الجريدة عن وجهه ، وتطلع إلى زوجته ، يديم فيها النظر ، متداعى الصبر ، يقول :

« عزيزة » . . . كفاك إملاء ونهيا . . . دعى النهار ينفض على خير .

— أتسمى ذلك إملاء ونهيا ... ؟ أنا لا أبغى لك إلا الخير ... أتخاطر بصحتك فأسكت عنك ؟

— « عزيزة » ... أرجوك ، كفى عن هذا الشغب .

— أتقابل إخلاصى لك ، واهتمامى بك ، بالنكران والجحد ؟

— « عزيزة » ... لم أعد أطيق الحديث على هذا النحو ... إنه يثير أعصابى ، فاقلعى عنه .

— لن أدع الضرر ينزل بك . . . لن أقف مكتوفة اليد ، لا أدرؤه عنك وأحميك منه .

— أوامر ... أوامر ... أوامر . . . ألا تحسنين فى عيشك ، إلا الأمر والنهى ... ؟ الأكل عندك بأمر . . . والنوم بأمر ... حتى التدخين أصبح بأمر ... أنحن فى ثكنات عسكرية ليس لنا إلا إطاعة الأمر ... ؟

— صحتك أغلى من كل شىء ... لن أتخلى عن رعايتك مهما كلفنى ذلك من جهد .

ـــ أما فطنت إلى أنى لست دمية ، مسلوبة الإرادة ، تتحرك بين يديك ، بوحى منك ... تشيرين فتخضع ... وتنهين فتمتنع ... لا ... لا ... أنا لست دمية لأحد .

ـــ أنت غرير كالطفل لا تعى أين يكمن الخير . . . وجب أن آخذ بيدك ، وأقودك إلى ما أرى فيه النفع ... اعف عن صحتك... إنها ليست ملكا لك وحدك .

وهوّم الزوج برأسه محنقاً ، ونطق يجيب متحديا :

صحتى ملكى ... ولا شأن لغيرى بها .

ـــ بل هى ملكى ... وأنا وحدى صاحبة الحق .

ـــ إذن لن أكمل فطورى ، إن كان هذا هو الرأى .

ـــ ستطوىء لفافتك ، وتكمل فطورك طائعاً ، رضى النفس .

ـــ لن أستجيب .

ـــ ستذعن للأمر .

ـــ بل سأدخن لفافتى حتى آخر نفس .

ـــ « عزيز » ... لا يروقنى أن تتخطى مانهيتك عنه .

ـــ ها أنا ... أرينى ماذا أنت صانعة ؟

ـــ سأنتزع منك اللفافة ، وأحشو فمك بالطعام حشوا ، إن أبيت وتمنعت .

— لن يخضعنى أحد . . . إرادتى صلبة لاتنكسر .

— وأنا عنيدة ... رأسى كالصخر ... ستخضع لى كما لو كنت رضيعاً لاحول لك ولا طول .

— لن تنالى منى .

— سترى .

وتحلحلت عن مجلسها فى خطف البرق ، معتزمة تنفيذ ما أقسمت عليه ، فمرق هو إلى باب الشقة مروق السهم ، متخطياً عتبته ، يصيح ملء الصوت :

الجنة معك جحيم تعافها النفس !

وهرولت فى أثره غاضبة تلاحقه ، فاعترضها الباب ، دفعه « عزيز » بكعب نعله ، فانطبق بعضه على بعض ، يقطع عليها السبيل ، محدثاً دوياً مرهوباً ، ورن صداه فى الشقة كالصرخة الملهوفة ، أطلقها الزوج فى حنق ، معلناً العصيان والسخط .

فركلت « عزيزة » الباب ركلة قوية ، هزت أوصاله ، وزلزلت كيانه ، وصدفت عنه ، ترسل الدمع .

أما « عزيز » فاندس فى زحمة الطريق ، وجهته وزارة العدل ، حيث يعمل بها مستشاراً بقسم الفتاوى والرأى ، وكان ثائراً ، يتمزق حنقا ، ينعى اليوم الذى ربط فيه مصيره بمصير تلك الزوجة

التى انقلبت نمرة تعكر عليه متعة الحياة ، وبهجة العيش .

ولما انتهى إلى حجرة مكتبه ، حيته وجوه مكفهرة ، عليها قطوب وحزن ، فأطلق بصره يتفقد « السيد عزبى » رئيس القسم وكان صديقا له ، حفيا به ، فصدمه مقعده خاليا إلا من الحشية التى يتربع عليها ، يصرف شواغل الناس فى حماس ، تتراحب على شفتيه بسمة أنيسة ، يستقبل ويودع بها قصاده ، حتى ينتصف النهار ، فيغلق مكتبه ، وينصرف إلى بيته آمن البال ، مطمئن القلب ، لا تفتأ البسمة الأنيسة تتلألأ تحت شاربيه .

وأحدّ « عزيز » النظر فى سمات زملته ، يستوثق والدهشة آخذة به كل مأخذ ، فانعطف عليه أحد الزملة ، وكان منه عن كثب ، يهمس له :

البركة فيك ... كلنا لها ... وهذا مصير كل حى !

وأرتج على « عزيز » ، فلم ينطق بحرف ، وثرثر الزميل ، وعيناه بالمقعد الخالى معقودتان :

ماتت زوجة الأستاذ ... الجنازة ظهرا من مسجد « عمر مكرم » .

وتنفس « عزيز » الصعداء ، حين اطمأن على صديقه ، وتشدق بالكلمات ، وقد انفرجت عقد أساريره :

لم أقرأ النعى ... أو لم يعلنوا فى الجرائد نبأه ؟

— لم يتمكنوا .. حدثت الوفاة عند الفجر .

وانبسط « عزيز » على مقعده ، وهو يتغنى بقوله :

غمة وزالت ... هنيئا له !

وعقب الزميل فى صوت منتحب :

لو علمت الحقيقة ما تفوهت بهذا القول ... كانت زوجة فاضلة تحوط زوجها بحب غامر ... ألف رحمة عليها ... الفاتحة .

ورفع الزميل كفيه ، واشرأب بعنقه يبسمل ، فاعتدل «عزيز» يطارحه الحديث فى مزاح يسخر منه :

وهل تجوز الرحمة على نساء الأرض ؟ . . مصيرهن النار لا ريب ، وإن قرأت على أرواحهن القرآن بأكمله ألف مرة ومرة .

وأجاب الزميل ضائق السمع :

اتق الله يا رجل ... أليس لك زوجة تحبها وتخاف عليها ... ؟

فتضاحك « عزيز » يهمهم :

لا عليك ... أستريح من ذلك البلاء المقيم .

— حرام عليك ... ألا تخشى الله ...؟ ربما استجابت لدعائك السماء ، فتحرم منها على غفلة منك .

ثم تنهد يضيف والحسرة تتمشى فى مهجته :

ما أشد الفراق بين أليفين متحابين !

فتلفظ « عزيز » مبتسما له :

مللت العيش على النحو الذى ألفته معها . . . حديثها يمجه السمع ، وتمله النفس ، ويعافه الطبع .

فتزايل عنه الزميل ، يهز رأسه ، ويضرب كفا بكف يجمجم :

أنت وشأنك . . . البقاء لله وحده .

وانكب على أوراقه ، يشغل باله عن ذلك الرفيق الفظ .

وخرج « عزيز » إلى جامع عمر مكرم مع الزملة ، وتقدم من « السيد عزب » يصافحه فى حرارة مواسيا ، فأسلمه الرجل كفه فى قنوط ويأس . فتأمله « عزيز » يتلفظ بكلمات رقاق يطيب بها خاطره ، مهونا عليه الخطب ، فتبينه ملتاع الصدر، يتقطع حسراته ويذرف الدمع .

وبرز نعش الفقيدة ، مدرجا فى مطارف من كشمير ، يتخطر على الأعناق ، ومن خلفه جمع المشيعين ، يتصدرهم «عزيز» يساير صديقه جنبا إلى جنب ، تتناوح فى رأسه الفكر ، وتهب على سمعه تنهدة زميل المكتب وهو يترنم محزون النبرة :

ما أشد الفراق بين أليفين متحابين !

فكان لها وقع النار فى أذنيه ، فتغضن جبينه ، وران عليه اكتئاب .

وما كان أشد جزعه ، حين ترنح « السيد عزب » فى خطوه يستبد به نشيج جياش ، فسارع يعينه على تماسك وثبات ، مضطرب الأوصال ، جهم القسمات ، يتصدع زفرات .

وفرطت منه نظرة إلى النعش ، فتملكته قشعريرة ، وأحس بالتفجع يغمره ، فانحدرت من عينيه دمعتان لم يقو على حبسهما فى مآقيه الحزينة المجهدة ، وانساب ينخرط والرفاق فى مناجاة خرساء ، كما لو كان هو الزوج المطعون فى أليفه ، يبثه ما يعمر صدره من محبة وإكبار .

ودارت فى رأسه ذكريات .

وشعر بأنفاسه تتقطع وتحتبس ، فتوخى رباط الرقبة يفك عقدته ، وإلى طوق قميصه يتحرر من قبضته ، يستجلب لرئتيه مزيدا من هواء ، فتشعث هندامه ، وبانت عليه مخايل اضطراب واغتمام .

فها هو ذا يتمثل « عزيزة » فى أول لقاء تم بينهما فى حفل خيرى ساهر : كانت فى ثوب أزرق مواج ، وقد عقصت شعرها إلى خلف فى ضفيرة خصبة ، فتهدل على ظهرها يزيدها من بهاء

ورواء ، وكأنها إلاهة من آلهة الإغريق ، جاءت من عالمها العلوى لتشرك البشر ما هم فيه من سرور وطرب .

فحدق فيها يملأ من جمالها عينيه ، وقت أن قدمها له بعض الرفاق ، فأمسك بيدها يحييها تحية تبجيل وإعظام ، وقد ملك حبها عنانه ، وسلب منه فؤاده ، فبات ليلته مؤرق الجفن حتى لاح الصباح ، فلفظه إلى مغناها طالبا يدها ، لا يصدق أنها ستحل بمنزله زوجة له .

ولبثا فى رخاء من العيش ، يتقاسمان الود والصفاء ، كأنما هما عصفوران فى قفص لا تعنيهما الحياة الرحيبة فى قليل أو كثير ، بما تحويه من زخرف وزيف .

وتوقفت الجنازة عن السير ، تقيل صاحبنا من متاهات التأمل ، وبيداء التفكير .

وانتحى « السيد عزب » ناحية ، فلازمه « عزيز » ملازمة الظل ، وتوافد عليهما المشيعون مصافحين ، فكان يتقبل العزاء ، لا يفتر له بكاء ، ولا يغيض له دمع .

وحياه زميل المكتب بين مصدق ومكذب : أهذا « عزيز » زميله الفظ ، أم هو طيف من الأطياف ، رقيق الحاشية ، مرهف الحس ، هبط من كوكب غير الذى نقطنه ، لا يماثل « عزيز » من قرب أو بعد ؟

وعدل الزميل عن رفيقه ، لا يعي لذلك الانقلاب من كنه .

وقصد «عزيز» مدينة الصمت فيمن قصدها من الأشياع والأتباع وأقام على فوهة القبر المتثائب ، يرقب مأزوم النفس ، ماتجرى به الأحداث ، فإذا بالرفات يظهر من تاووسه الخشبي ، ملفوفا فى أكسية من حرير ، وإذا به يهبط إلى أغوار الرمس ، تحمله سواعد غلاظ إلى حيث لا تراه العيون .

وما يخلص اللحاد من مراسم الدفن ، ويخرج إلى عالم الأحياء نافضا يديه ، حتى تنشط بطانته تسوى الجنادل وتهيل التراب الندى ، فتنغلق مهاوى القبر ، كأنه الوحش الضارى أطبق فمه .

وإذا بجماعة من العفاة تتحلق على الضريح ، فى أسمال وهلاهل ، ترتل الصلوات ، فى حشرجة راتبة وصوت أجش ، كى تنفذ أقاويلهم إلى باطن الجدث ، فتلقى فى قلب صاحبته الأمن ، وتلقنها ما تستقبل به الملكين حين يناقشانها الحساب ، وماتنطق به من الجواب المقنع والرد المنجى من قصاص وعقاب ، فيسكن روعها ، وتعيش إلى الأبد ، فى قرار سكينة ونعيم .

وترق تلك الأناشيد إلى أسماع صديقنا «عزيز» ، وكأنها تنهدة زميل المكتب تقرع أذنيه فى ألم وجيع .

أحقاً هو كاره لزوجته ، محنق عليها لما بدر منها مما يسوءه ويضايقه ؟

هل كان جاداً فيما تفوه به من عبارات خرقاء ، تعافها النفس الطيبة ، ويأباها القلب الحنون ؟

أفى مكنته أن يتخلى عن « عزيزة » يسلمها لمثل هذا المصير ، فلا يكون لها معه رجعة وعيش ؟

أهذا الذى يشهد ، منتهى حبه وهواه ، يعجز — وإن هو أوتى قوة شمشون الخارقة — أن يحميه مبقياً عليه ؟

وأحس « عزيز » بقواه تنسرق منه ، وبالتهافت يستأثر به ، فعمد إلى شتات نفسه يستجمعه فى عناء ، وتراجع هائماً على الطريق ، متفزع الفكر ، حائر الطرف ، حتى تلقفته سيارة ، فارتقاها يحث السائق أن يسرع به إلى الوجهة التى رسمها له ، واعدا إياه أن يبذل له العطاء فى سخاء .

وعندما كفت السيارة عن العدو ، هرع يصعد الدرج ، مهتاج الوجدان ، وفتح باب الشقة على عجل ، ينادى زوجته ملهوف الصوت ، فظفر بها تصفف المائدة تعدها للغداء ، فارتمى فى أحضانها يطوقها بذراعيه . . .

وكلما رف للرمس فى وجدانه المتداعى رفيف ، احتدم عناقه واحتد تشبثه ، ولا يملك من نفسه إلا أن يضم « عزيزة » إلى صدره فى عنف وإصرار ، كأنما يخشى عليها ، إن هو أرخى عنها ساعديه ، أن تفلت منه إلى وادى الحرمان ، وأن ترحل عنه إلى عالم الصمت !

تباطأ عنه الرفاق

همه الأكبر الكتابة ، ومشغلته فى دنياه الأدب ، أما عمله اليومى ففى دار البريد ، موظف مطمور الشأن ، مهيض الجانب ، يؤدى عمله فى ملالة وفتور .

ما إن يشيع مكتبه ويلتق بالطريق يطالع أفواج الناس ، ومواكب النور ، حتى تنبسط نفسه ، وتلتمع فى رأسه أحلام وتصورات ، فيأوى إلى قهوة أو يقف على طوار ، يدون ما يعتلج فى صدره من أصداء وأحاسيس ، وإذا به يلمح خلال السطور مولد قصة مثيرة ، تستحق فيما يظن ، الرضا والتقدير ، فلا تلبث الأوراق أن تطوى فى رسالة ، يحملها صندوق البريد إلى الناشر ، يحدوها مصير مجهول .

ماذا يا ترى يكون حظها فى خضم الفن ...؟ أتحتويها سلة المهملات بين ما يستقر فيها من نفايات ... ؟ أم تتبوأ من الجريدة المكان المرموق تطالع الناس بجلائل العبر والعظات ...؟

وينتظر الفتى صبحه ، مشبوب الفؤاد ، يترقب ، فإذا بالصحيفة

تصدر خالية من اسمه ، لا يحمل جبينها له قصة أو مقالا ، فيرين عليه يأس وقنوط ، ويجر نفسه إلى مكتبه العبوس فى تطامن وخنوع ، يضرب الرسائل بخاتمه ذى الوجه الأغبر الخشن ، تمضه حسرة ، ويحاصره ضيق .

وساير الفتى أيامه ، وما زالت الأفكار تتواثب فى رأسه ، تنشد من محبسها حياة الطلاقة والشروق ، فيرسل لخياله العنان ، ويسيل المداد من قلمه أقاصيص وحكايات ، يصدرها كمألوف عادته ، عسى أن يواتيه الحظ بأحسن مما كان .

غير أنه لم يظفر إلا بما يثبط عزمه ، ويفت فى همته .

وعلى الرغم من سوء طالعه فى ميدانه الأثير ، فقد اتخذ الفتى لنفسه سمات الفنان وشيانه ، فأطال شعر رأسه ، وأصبح له عثنون منتفش ، وتلوى على عنقه رباط فاقع اللون على هيئة فراشة ، أما بقية الزى فكان لا يخلو من غرابة وشذوذ .

وكثيراً ما تعرض الفتى لنقد وتقريع بين أخدانه حين كان يضمهم مجلس ، ومرة جابهه أحدهم ، والبسمة تتماوج على شفتيه يقول :

متى تطالعنا بأدبك الرفيع يا أستاذ؟ ... نود أن نقرأ لك روائع الأفكار ...

فتنفخ صاحبنا يغمغم وقد طاش حلمه :

عما قريب تظفر بما تريد ...

وأدار ظهره يدبر عن ذلك الرفيق المجترىء ، وكأن فى جسمه لسعات من نار ، وانخرط بين الناس يسايرهم على مدرجة الطريق ، لا يحسن من قيـــادة نفسه ، حتى أفضى به التجوال إلى أرباض القاهرة ، يشرف على الصحراء ، متراحبة فى جمود ، تترامى عليها كثبان الرمال كأنها رفات الموتى ، قد غيبهم ذلك الفضاء المرهوب بين مناحيه ، فلا عظمة لهم بين الأحياء ولا وجود .

وانسرح الفتى مفكراً فى مصيره ، وقد تملكه سهوم ...

أحقاً هو أديب موهوب ؟ أم أنه واهم يحدوه ضلال مقنتع مستور ... ؟

ما ذلك الشبح المحجب الذى يباعد بينه وبين الشهرة والسمو ... ؟

لماذا تتكالب عليه قوى الشر تنحيه عن هدفه المنشود ، ألا وهو الآخذ بيد الفن ، يدرج به إلى رفعة وكمال ... ؟

ولم يظفر صاحبنا إلا برجع صوته يردد فى حماس تلك الأسئلة الحيرى ، وسرعان ما أقبل راجعاً إلى عشه الموحش فى ذلك الحى المتواضع ، من مدينة « المعز » ، وهو فريسة لوساوس وظنون .

وانقطع الفتى عن عمله أياماً ، وأوصد عليه باب شقته ، وكأنه هشيم تأكله نار الكآبة والاغتمام .

إنه ضائق بذلك الإخفاق الملح ...

فى غير مكنته أن يلاحق ركب الحياة ، وقد أذله ذلك الرفيق هازئاً به ، منتقصاً من أدبه وفنه ... وخرج الفتى إلى سطح الدار ، وما لبث أن تهالك على حشية بالقرب من الحافة ، وقد أغمض عينيه يناوشه رعب وتفزع ، فإذا هو فى غابة تعانقت أدواحها تسد منافذ الضوء ، ومن فوق رأسه تصطفق الرعود ، وما هى إلا أن تنقض صواعق تحاصره بألسنة من لهيب .

وسرعان ما هدأت العاصفة ، وانشق الغاب فى صخب وضجيج عن وجه أشيب مسنون ، تعلوه صفرة ، وقد تزاحمت عليه التجاعيد تزيده من دمامة واستيحاش .

ووقف الوجه قرب الفتى يحدجه جامد الملامح ، دون أن يطرف أو يبتسم ، فنظر إليه الفتى مأخوذاً من خشية ووجل ، فعلقت عيناه بلفائف من ورق مهلهل ، ناصل اللون ، فانفرج فم ذلك الوجه عن بسمة شوهاء ، وهو يقول :

اقرأ

— وماذا تريدنى أن أقرأ ، والكلام غير مستبين ؟

فقهقه الوجه قهقهة عاتية ، ثم أردف يقول :

هذا هو أدبك ... أدبك الذى تعتز به .

وسرعان ما اختفى الوجه ، تاركا الفتى يعانى الحيرة والاضطراب .

ماضره لو محا كل أثر لما خط وكتب ...؟ إن أضاميم القصائد ، وأضابير القصص ، ما هى إلا نزوة القلم ، واستبداد تفكير عقيم عابث ... فليتخلص من ذلك الشقاء ... فليحرق أوراقه ... إنها ليست جديرة بالحياة والنماء ... لتذهب أفكاره فى ركام النار غير مأسوف عليها ...

وصدر عن سطح الدار ، وقد استبد به أمر ، وما إن طالعته فى حجرته كومة الأوراق حتى أشعل عود ثقاب ، فالتمعت منه شرارة ، مالبثت أن اندلعت ناراً حامية فى موقد عن كثب منه .

وامتدت يده إلى كومة الأوراق لاتفلت منها شيئاً ، ليقدمها طعاماسائغا لهذا اللهب المستعر ، وبغتة توقف يتوسم أوراقه ، كأنها وليد محبوب ، له إيناس ، وابتسام ، ودعة . . .

ومال يقرأ فيها قراءة وداع ، فإذا به منساق يطاوع السطور فى نشوة وإعجاب ، وقدنسى ألسنة النار على مقربة منه تتضور من جوع ، كأنما هى فى حفيفها تطالبه بغذائها الموعود .

وعندما ثاب إلى وعيه ، تناءى عن الموقد ، فسيح الخطو ، وهو يرميه بنظرات الزراية والامتهان ، وقد ضم أوراقه يحميها من تلك النار التى ماخلقت إلا عقاباً للفجرة المارقين ، وما أوراقه إلا رسالة هداية وإصلاح جزاؤها جنة ونعيم !

وأسرع الفتى إلى إناء يترعه بالماء ، ومثل حيال النار المتأججة يلقى عليها الماء جزافا ، فخمدت أنفاسها فى حشرجة شوهاء

ووقف برهة بالقرب من الموقد تعروه قشعريرة ، وبان عليه وجوم التفكير .

وأحس الفتى أن نفسه أهون عليه ... فلينتحر هو ، وليعف عن أوراقه عسى أن تنعم يوما بحياة عزيزة حافلة بالتقدير ... تلك هى حقيقة الخلود ، ليس الخلود بعمر يطول ، ولا بجسد يتحرك ويسعى .

عليه قبل أن يسمو بنفسه إلى عالم الأرواح والرموز ، أن يودع بنات أفكاره فى رسالة تكون هى خاتمة مجهوده الأدبى .

وانكفأ على صفحات بيضاء يدبج ، وتناول قلمه يشرعه فى وجه المسيطرين على النشر ، ينعى عليهم ظلمهم ، فإذا بالقلم يجرى فى ليونة ويسر ، يخط قصة حياته ، واصفاً ما كابده من شقوة وعذاب ، فى صدق تعبير وفورة إحساس .

وما أتمها حتى طواها يودعها ظرفها ، واستدعى إليه أحد الجيرة يحمله الرسالة إلى صاحب جريدة « الإنسانية » . فحمل الرسالة وخرج بها ينتهب الطريق .

وتصرمت أيام على الفتى لم يقر له فيها قرار ، فهو تائه الفكر ، شارد اللب ، لا يحسن حزم نفسه ، كالسارى فى جوف الليل تعتصره أوهام الظلام .

لقد اكفهرت الدنيا لعينيه ، وقذفت به ريح اليأس العاتية إلى زجاجة المنوم يفرغ فى جوفه ما احتوته من أقراص مستديرة ، لامعة البياض .

ومرت الدقائق تماطل الزمن ، وسرت فى جسده المعذب وهو ملقى على الفراش ، سارية من فتور ، وتباطأت أنفاسه ، وتخاذلت أوصاله ، وبدأ بصره يغيم .

فإذا الوجه الشائه يبرز إليه من خلف الغيوم ، وقد تبدل حاله فانبسطت أساريره ، وتزايلت عنه التجاعيد ، تتضوأ على فمه بسمة وضيئة تحمل معنى التفاؤل والاطمئنان ، فقال للفتى فى صوت منغم لا يخلو من كياسة وتظرف :

اقرأ .

فامتثل الفتى يتصفح وريقات تحتوى على روائع أفكار ..

فاستفزه الفضول يسأل عن هذه الدرر وتلك الروائع ، فتردد له الوجه الوضيء يقول :

هى لك ... إنها أدبك الذى تعتز به وتفخر . . . لقد مستك يد الفن ، منذ تبسمت للحياة ، فآمنت فيما آمنت به أنك صاحب رسالة تسمو بالفن إلى مستواه المرموق ، فإذا بك تقبل على وحيك تغترف من فيض خيالك غرفات منهوم . . . الفن خمر أسكرتك بكأسها ، فارتويت منها وأرويت الأوراق بأدب رفيع . . . فاهنأ بذلك ، وليكتب لك الخلود .

وتزايل الوجه عنه .

فاهتز الفتى يقاوم مجهداً مصيره المكتوب ، غير أن الفناء كان قد غرز نصله فى مقتل ، فتهالك الفتى غير قادر أن يرد عنه مصيره المحتوم .

وينشق جدار الحائط عن الوجه مرة ثانية ، وقد ظهر فى مظهره الشائه الكريه ، فالتفت إليه الفتى يستخبر عن مجيئه فى تلك اللحظة الفاصلة ، فصدمه الوجه يقول :

بعد قليل ستنأى إلى برزخ الأرواح ، قاطعاً ما بينك وبين الحياة ... لتمح ما كتبت .

فصرخ الفتى فى جهد يائس أخير :

هيهات .. إنها بنات أفكارى . . . ما الإنسان أيها الإخفاق البغيض ...؟ إنه حفنة من تراب ... أما الفكر فهو الينبوع المتجدد الخالد ... سأموت بعد لحظات ... أما أفكارى ، أوراقى ، فتعيش لتحارب فى سبيل البقاء . . . اغرب عن وجهى .. ما أقساك أيها الإخفاق من ناقد جبار تميت الأمل ، وتطمس النور . . . اغرب عن وجهى ...

وفى ملتطم تلك الحيرة واليأس كان الفتى يجاهـــد بين الظلام والنور . .

وفى ضحوة الغد اهتزت الحجرة بجلبة وهرج ، فقدحضر بعض الرفاق يهنئون صديقهم الأديب المغوار ، فإذا به جثة هامدة ، ليس للمديح والإطراء عليه سلطان .

وفى ظهيرة اليوم نفسه ، وقف أحـد الرفاق على قبر الفقيد ، ومازال ندى الثرى ، يتلو رسالة الوداع ، وقد احتلت من صحيفة « الإنسانية » أرفع مكان ، ومالبث أن اختتم تلاوته بما كتبه ناقد الجريدة بتغنى بمولد أديب فوار العاطفة ، لماح الفكرة ، بارع الأداء . . .

ولكن هل يستمع إلى أغانى الأحياء أهل القبور؟ ! . .

فهرس

رقم الإيداع ١٩٧٠/٣٨٥٢